

قصة الاحتلال

تقدمها جامعة الاسكندرية
يوم الجلاء

أعد هذا البحث
الدكتور جمال الدين الشيال
أستاذ التاريخ بجامعة الاسكندرية

مطبعة جامعة الاسكندرية
١٩٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده جل شأنه على عظيم نعمه وكريم آلائه ، وبعد .

فتحتفل البلاد اليوم بمناسبة من أجل مناسباتها القومية ، بل انها أجلها جميعا ، وهى تمام جلاء المحتل واستكمال تحرير الوطن .

واذا كان يحق للمصريين كافة أن يفرحوا بهذا العيد — عيد الجلاء — ويحتفلوا به ، فان للاسكندرية مع الاحتلال شأنا يقتضيها أن تكون فرحتها مضاعفة ، فهى أول بلد ابتلى بالاحتلال واكتوى بناره ، وقد تلقت الضربات الأولى لقوى العدوان الغاشمة فتحملتها مجاهدة صابرة .

ولقد رأت جامعة الاسكندرية أن تسهم فى هذا الاحتفال بما يتفق ورسالتها الثقافية والتعليمية ، فأعدت " قصة الاحتلال " لنشرها بين جمهور المواطنين عبرة وعظة ، وتخليدا لذكرى من قضى من الأبطال المجاهدين ، وتحية وتقديرا لمن تحقق النصر على أيديهم من رجال الثورة الأبطال وفى مقدمتهم السيد الرئيس " جمال عبد الناصر " .

والله نسأل أن يجعل هذا النصر فاتحة لعهد تقدم ورخاء لوطننا الكريم ، انه نعم المولى ونعم النصير .

مدير الجامعة

[توقيع]

الاسكندرية فى ٩ من ذى القعدة سنة ١٣٧٥
١٨ من يونيه سنة ١٩٥٦

أكاذيب الاستعمار يجب أن نخرج منه

لقد جاهدنا من أجل هذا اليوم جهادا مريرا .

وكنا اذا ادلهمت الخطوب ، أو تكاثرت السحب ، أو نال منا التعب ، نظرنا الى الأفق البعيد نستشف من ورائه صورة هذا اليوم الحبيب ، وناجينا الله سبحانه متسائلين :

يارب ، أما لهذا الليل من آخر ؟ ؟

واليوم وقد انجابت سحب الماضي البغيض ، وأخذنا الأهبة لاستقبال تباشير الفجر الجديد ، فجر الحرية الكاملة والاستقلال التام ، يجب ألا ننسى ، يجب ألا ننسى الماضي مهما كان كريها ، فالوطن ، كما قال بطل الجلاء الرئيس جمال ، ماض وحاضر ومستقبل . فنحن في حاضرنا نستقبل عيد الحرية الأكبر ونتطلع الى مستقبل مزدهر باسم ومن واجبنا ألا ننسى الماضي ، من واجبنا ألا ننسى ما فعله بنا الاستعمار .

لقد ذقنا من هذا الاستعمار مرارة الصاب والعلقم ، وأخشى ما أخشاه أن تسرى النشوة الحلوة في ألسنتنا فتنسينا طعم هذا الصاب والعلقم ، فلا نكون حريصين على نعمة الحرية ، ولا نبذل الجهد في الاحتفاظ بها ، ولا نستميت في الدفاع عنها .

ولعل أسوأ ما رمانا به الاستعمار هو سعيه الدائب أن يفقدنا الايمان بالوطن وأن يزعزع ثقتنا بأنفسنا ، فقد حرص الاحتلال منذ اللحظة الأولى على أن يشيع في المصريين بعض الأكاذيب التي اتخذ لها ثوبا علميا . من هذه الأكاذيب الشائعة التي ظل يرددها المستعمرون ، والتي رددها المصريون — للأسف — بعده ردحا طويلا من الزمن أن مصر منذ عهد الفراعنة لم تكن دولة مستقلة ، بل كانت دائما محتلة يتوالى على حكمها الولاة من كل شعب وجنس .

وهذه الأكذوبة لم تتردد فى المؤلفات الأوربية التى كتبت عن تاريخنا ، وفى الكتب المدرسية المصرية — الى عهد قريب — عبثا ، بل لقد كان الهدف من ترديدها أن تصبح حقيقة ثابتة وأن تتغلغل فى نفوس الشباب المصرى حتى يستكين ويذل ، وحتى يفقد الثقة فى نفسه والايمان بوطنه ؛ وعلى مصر وعلى هذا الشباب العفاء ان هو فقد هذه الثقة وهذا الايمان .

والتاريخ السليم ، والبحث العلمى الصحيح يثبت خطأ هذه الاكذوبة ، فمصر حقيقة قد فقدت استقلالها فى بعض العصور ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من الدول ، ولكن هذه العصور لا تعتبر شيئا مذكورا اذا هى قورنت بالعصور الأخرى الطويلة التى تمتعت فيها بالاستقلال .

فقدت مصر استقلالها منذ عهد الفراعنة الى الآن ثلاث مرات : فى العهد الرومانى ، وفى العهد العربى الأول ، وفى العهد العثمانى (والاحتلال البريطانى ما هو الا امتداد للاحتلال العثمانى) ، وذلك عدا فترات قصيرة أخرى غزا مصر فيها الغزاة ، ولكنهم ما لبثوا أن جلوا عنها سريعا كما حدث فى الغزو الفارسى .

وأسوأ العهود التى مرت بمصر فى تاريخها الطويل العهدان الرومانى والعثمانى ، فقد اضمحلت فى خلالها البلاد اضمحلالا تاما شمل نواحيها المختلفة ، أما العهد العربى الأول فرغم أنه عهد تبعية فقد أنقذ مصر من ظلم الرومان وعسفهم ، وحمل الى مصر العدالة والاصلاح والنور والتوحيد عند ما حمل اليها الاسلام .

فاذا استثنينا هذه العصور الثلاثة رأينا مصر مستقلة استقلالا يكاد يكون تاما فى عهود الطولونيين والأخشيديين والأيوبيين ، لا يشوب هذا الاستقلال الا خيوط واهية تتمثل فى الخطبة باسم الخليفة العباسى ، وضرب السكة باسمه ، وبعض المال الذى كان يرسل من فائض الميزانية الى عاصمة الخلافة .

وكانت مصر بعد هذا مستقلة استقلالا تاما لا تشوبه شائبة فى عهدى الفاطميين والمماليك .

نقول ان البحث العلمى الصحيح يثبت ما قلناه لأننا يجب أن نزن الاستقلال بمقوماته فى تلك العصور ، لا بالمقومات التى أحدثتها العصور الحديثة ، ففى تلك العصور كان الحكام يلون الحكم فى مصر تبعا لنظم مصرية معترف بها ، ولم يكونوا يولون ويعزلون بأوامر صادرة عن دولة أجنبية أخرى ، وكانت الجيوش جيوشا مصرية ، تدافع اذا دافعت عن مصر ، وتفتح اذا فتحت باسم مصر ، وكان الاستقلال الاقتصادى متوفرا ، فالعملة مصرية لا ينقش عليها غير اسم حاكم مصر ، وكانت الاتصالات الخارجية والمعاهدات والسفارات تتبادل باسم مصر لا باسم غيرها من الدول .

ولم يكن يشوب هذا الاستقلال — فيما يدعى البعض — الا أن بعض الحكام كانوا أصلا من أجناس غير مصرية ، وهذه الحقيقة الصغيرة هى التى اعتمد عليها الأوربيون فضخموها ، وعلى أساسها حكموا حكمهم الخاطىء أن مصر لم تتمتع يوما ما بالاستقلال .

ولكن هذه الحقيقة الصغيرة مع هذا لاتعيب استقلالنا ولا تخدشه ، فأى أسرة من الأسر الحاكمة فى الدول الأوربية فى العصور الوسيطة والحديثة كانت تنتسب للشعب الذى تحكمه انتسابا نقيا خالصا ؟؟ ان نابليون الذى يعتز به الفرنسيون حتى اليوم لم يكن فرنسيا ، بل هو من أهل جزيرة كورسيكا ، والأسرة الحاكمة الحالية فى انجلترا ترجع الى أصل جرمانى ، وهتلر زعيم المانيا السابق من أصل نمساوى ، والأمثلة غير هذه كثيرة .

فاذا أضفنا الى هذا أن مدلول الوطنية فى العالم الاسلامى فى العصور الوسطى كان يصطبغ بالصبغة الدينية عرفنا أن استقلال مصر فى تلك العصور لم يكن فى مفهومه المتعارف وقتذاك ينقصه أى مقوم من مقومات الاستقلال . فالمسلم الصينى — على سبيل المثال — كان اذا حل فى الشام أو فى مصر أو فى المغرب لم يشعر أنه غريب ، ولم يشعره أهالى تلك البلاد أنه غريب ، بل كان يعتبر نفسه فى وطنه أينما حل .

فانتماء الخلفاء الفاطميين الى الجنس العربى ، أو على الأصح انتماء أولهم المعز لدين الله الى الجنس العربى ، لايعيب استقلال مصر فى العصر الفاطمى المزدهر الحافل بكل علائم التقدم والحضارة ، واذا كان المعز عربيا فان من تبعه من أولاده وأحفاده كانوا مصريين لحما ودما ، ولدوا فى مصر ، ونشأوا فى مصر ، وقادوا الجيوش باسم مصر ، وحكموا امبراطورية مصرية مترامية الأطراف حتى لقد كان المؤرخون المسلمون يسمون الدولة الفاطمية دولة الخلفاء المصرية .

وعند ما خرج صلاح الدين الى الجهاد الأكبر ضد الصليبيين الذى توج بانتصاره الحاسم فى وقعة حطين التى مهدت له الطريق لاستعادة بيت القدس وتحرير فلسطين ، فانه كان يحارب بالجيوش المصرية وباسم مصر التى هو سلطانها .

وعند ما صمد الملك الكامل محمد أو الملك الصالح نجم الدين أيوب للغارات الصليبية التى هددت مصر حتى انتصرا عليها ورداها خائبة ، فانهما كانا يدافعان عن أرض الوطن بجيوش الوطن .

يضاف الى هذا أن مصر امتازت فى كل عصورها بخاصة مميزة ، فهى قادرة دائما على هضم كل غريب وصهره فى بوتقتها وتمصيره تمصيرا تاما فى وقت قصير .

ولكنه الاستعمار دائما فى كل وقت وفى كل مكان ، أمضى أسلحته تحطيم الروح المعنوية فى الشعوب المستعمرة ، وفى شبابها بوجه خاص ، عن طريق التربية والتعليم ، بما يدسه فى الكتب وفى الصحف من آراء تهدف دائما الى فقدان الثقة بالنفس والايمان بالله وبالوطن ، وتحطيم المثل العليا ، ونشر كل ما يدعو الى الرخاوة والدعة والكسل والدلة .

فالطالب الفرنسى والطالب الانجليزى يعلمان فى مدارسهما كل صغيرة وكبيرة عن تاريخ فرنسا وانجلترا وأبطالها ، والطالب المصرى فى المدارس المصرية كان الى عهد قريب لايعرف عن تاريخ بلاده الا القدر الضئيل ، وبالصورة المشوهة ،

فمن من شباب مصر كان يعلم شيئا تفصيليا عن بطولة المصريين فى مواقع حطين ودمياط والمنصورة ورشيد للدفاع عن مصر والشرق الاسلامى ضد خطر الصليبيين والانجليز ؟

ومن من شباب مصر كان يعلم شيئا تفصيليا عن بطولة جيش مصر فى وقعة عين جالوت للدفاع عن مصر والشرق ، بل والعالم الأوربى كله ، ضد خطر التتار المخرب المدمر ؟

لقد خرج التتار من أواسط آسيا بقضهم وقضيضهم فى جموع حاشدة تضم عددهم وأسلحتهم ودوابهم ، ألوف الألوف لا يدينون بدين سماوى ولا يتحضرون بحضارة ما ، بل لا يفهمون معنى الحضارة ولا يقدرونها ، وظلوا سنوات طوالا يتقدمون والنصر حليفهم ، لا يمنعهم مانع ، ولا تصدهم حصون أو قلاع ، ولا تقف أمامهم جيوش أو دول ، وهم فى نشوة النصر يخربون ويقتلون ويسلبون وينهبون ، فقضوا على دولة خوارزم بعد نضال عنيف ، وقضوا على الخلافة العباسية فى بغداد ، ثم تقدموا فاستولوا على الشام ، ووصلوا أخيرا الى حدود مصر عند غزة ، فتملك الفزع سكان الشرق الأوسط من هذا الشعب الذى لا يهزم أبدا .

وأرسل هولاكو رسله الى سلطان مصر العظيم سيف الدين قطز ينذره بالويل والثبور ان هو لم يسلم ولم يخضع ، ولكن قطز مزق الرسائل ، وقتل الرسل ، وعلق رؤوسهم على أبواب القاهرة ، وخرج بجيوش مصر ، وبث الحماس فى جنوده وانتصر لأول مرة على جيوش التتار فى وقعة عين جالوت الحاسمة .

ولأول مرة يذوق التتار — منذ خرجوا من قلب آسيا — طعم الهزيمة ، ثم توالت عليهم الهزائم الى أن طردوا من الشام جميعاً ؛ ولم ينتصر قطز الا بقوة ايمانه ، فان الرواية تذكر أن الجيش المصرى أوشك على التخاذل فى بدء المعركة ، فتقدم قطز الصفوف ، وألقى بخوذته الى الأرض ، وصاح صيحته المشهورة : " واإسلاماه ! يا الله ، أنصر عبدك قطز على التتار " .

آمن هذا العبد بربه فنصره الله على أعدائه هذا النصر المبين .

لو أننا كنا نعلم شبابنا فى المدارس هذه الحقائق التاريخية ، لخلقناهم خلقاً آخر يؤمن بالله وبالوطن وبالمثل العليا ، ويضحى فى سبيل ذلك بكل ما يملك ، حتى بالروح ، ولكنها سياسة الاستعمار وأتباعه كانت تغطى هذه الصفحات المشرقة من تاريخنا .

واجبنا اذن أن نكشف للشباب هذه الأكذوبة الكبرى التى خلقها الاستعمار يوم دخوله مصر ، ومن الواجب أن تخرج معه يوم خروجه ، وواجبنا أيضاً أن نثبت لشبابنا اثباتاً علمياً صحيحاً أن مصر كانت فى معظم عصورها مستقلة استقلالا تاماً ، وأن نبرز أمامهم أمجادنا الحربية والحضارية .

الاستعمار البريطانى ليس وليد القرن التاسع عشر

وواجبنا أخيراً أن نثبت لشبابنا حقيقة أخرى هامة غفل عنها الكثيرون ، وهى أن الاستعمار الأوربى لبلادنا ولبلاد الشرق الأوسط لم يكن وليد القرن التاسع عشر ، بل هو حلقة من سلسلة محاولات قديمة ، هدف بها الأوربيون الى استعمار مصر والشرق العربى .

بدأت هذه السلسلة بمحاولات الاوربيين غزو هذه البلاد باسم الصليب ، ولكن مصر تزعمت بلدان هذا الشرق العربى ، واستطاعت أن ترد حملات هؤلاء الأوربيين مرة ومرات ، وأعطتهم دروساً قاسية لا يمكن أن ينسوها أبداً ، لعل أخطرها أسر ملك فرنسا لويس التاسع فى موقعة فارسكور ، وسجنه بمدينة المنصورة . ولا يجوز أن نستمع الى قالة القائلين ان هذه كانت حرباً دينية صرفة ، فنحن لو استثنينا الحملة الصليبية الأولى وما صاحبها من حماس دينى ، نجد أن الحملات التالية كلها كانت حملات استعمارية بحتة ، الهدف الأول والأخير منها استعباد هذه البلاد ، وافناء أهليها ، والسيطرة على مواردها ، وان كان قواد

هذه الحملات وجنودها قد لبسوا مسوح الدين ، فإنما ليخدعوا العالم وليحققوا مآربهم باسم الدين ، والا فان الدين المسيحى — دين المحبة والسلام — لا يمكن أن يقر الوحشية التى اتصف بها الصليبيون فى حروبهم .

قاومنا اذن هذه الحلقة الاستعمارية الأوربية الأولى ، ونجحنا فى مقاومتها لأننا كنا مؤمنين ولأننا كنا أقوياء ، وكانت لنا مثل عليا نحارب من أجلها .

وتابع المماليك سياسة الأيوبيين ، وظلوا يقاومون هؤلاء المستعمرين الأوربيين الى أن أخرجوا آخر جندى أوربى من عكا فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، ولجأت بقايا هؤلاء الأوربيين الى جزيرتى قبرص ورودس ، وأقامت فيهما دولا دأبت على مهاجمة السواحل المصرية ، فأرسلت مصر فى عهد السلطان برسباى أسطولا مصريا ضخماً الى جزيرة قبرص فى القرن الخامس عشر فتح هذه الجزيرة ، وعاد الجنود المصريون المنتصرون يشقون شوارع القاهرة ، وفى ركابهم ملك قبرص أسيراً . فمن من شباب مصر يعرف هذه الصفحة المشرقة من تاريخنا ؟ ومن منهم يعرف أن قبرص ظلت جزءا من ملك مصر الى أن فتح الأتراك العثمانيون مصر فضموها اليهم .

وشغلت الدول الأوربية بنفسها وقتاً ما خضعت فى ابانه مصر للحكم العثمانى ، فأصابها الضعف والانحلال ، فلما بدأت دول أوربا نهضتها الحديثة عادت ترنو بأنظارها نحو مصر وبلدان الشرق العربى ، تريد أن تحقق حلمها القديم .

وأتت حملة نابليون الى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، ولقيت من مقاومة الشعب المصرى الأمرين ، فلم يتركها هذا الشعب المجيد تنعم بالراحة لحظة واحدة ، فقاوم السكندريون بزعامة السيد محمد كريم ، وثار القاهريون ثورتهم الأولى والثانية ، وقاد الشعب فى مقاومته البطل المصرى السيد عمر مكرم ، وثار سكان دمياط والمنزلة والدقهلية بقيادة البطل المصرى حسن طوبار ، بل لقد قاوم المصريون الفرنسيين فى كل مكان حتى أسوان . واضطر الفرنسيون أخيراً الى الخروج من مصر بعد ثلاث سنوات .

وكانت جنود الانجليز قد نزلت بأرض مصر مع الجند العثمانيين فى سنة ١٨٠١ بحجة الاشراف على جلاء الفرنسيين واعادة مصر الى السلطان ، ولكن انجلترا بدأت تتلكأ بعد خروج الفرنسيين ، تريد انتهاز الفرصة وابقاء جنودها فى مصر ، غير أن الفرصة لم تواتها ، واضطر جنودها الى الخروج .

وبدأت انجلترا تفكر منذ ذلك الحين تفكيراً جدياً فى العودة الى مصر واحتلالها ، وعادت انجلترا فى سنة ١٨٠٧ ، ونزلت حملة فريزر الى الاسكندرية ، وتقدمت نحو رشيد ، وتفرق الأهلون فى المنازل حتى انتشر الجند الانجليز فى الشوارع والطرقات فأمطرهم الأهالى القذائف من كل نوع ومن كل صوب ، فقتلوا أحد قوادهم وعدداً كبيراً منهم وأسروا عدداً آخر ، وفر الباقون منهزمين .

فللشعب هنا أيضاً الفضل فى مقاومة الانجليز ، وأرسل الأسرى ورؤوس القتلى الى القاهرة ، فارتفعت روح الشعب المعنوية ، وبدأت حركة التطوع ، وبدأ الشعب يقيم الاستحكامات فى القاهرة استعداداً للدفاع عنها ، اذا قدر للانجليز أن يتقدموا اليها ، وتولى الاشراف على هذا كله واذكاء الروح المعنوية البطل المصرى عمر مكرم ، فقد حدث هذا كله ومحمد على غائب فى الصعيد يطارد المماليك ، ثم هزم الانجليز مرة أخرى عند قرية الحماد ، فبدأوا يفكرون فى الانسحاب ، وجلوا عن مصر فى أغسطس سنة ١٨٠٧ بعد ستة أشهر . ولكن ليتحينوا الفرص المواتية ليعودوا اليها مرة أخرى .

وقد واتتهم الفرصة بعد خمسة وسبعين عاماً كان الشعب فى خلالها قد بايع محمد على والياً عليه بشرط أن يقيم العدل بينهم ، ولكن محمد على لم تكد تستقر له الأمور حتى عمل على التخلص من الزعامة المصرية ممثلة فى شخص عمر مكرم ، واستبد محمد على بأمور الحكم كلها ، وخلفه ولاة من أسرته ، كانوا أسوأ منه بكثير اذ لم تكن لهم على الأقل نزعته الاصلاحية ، الى أن كان عصر اسماعيل وسياسته المضطربة ، وبدأت دول أوربا وخاصة فرنسا وانجلترا تتدخل ، ووجدت المراقبة الثنائية . وانتهى الأمر بعزل اسماعيل ونفيه وتولية توفيق ، وفى عهد توفيق نزلت جنود بريطانيا أرض الوطن .

واليوم ، وبعد أربعة وسبعين عاما يحمل الاستعمار عصاه على كتفه ويغادرنا غير مأسوف عليه ، فما قصة هذا الاحتلال ؟

انها قصة الخداع والخيانة ، انها قصة البغى والعدوان ، انها قصة المآثم جميعاً التى ظللنا نعانى منها ثلاثة أرباع القرن ، فاستمعوا أيها المصريون الى هذه القصة نرويها فيما يلى ، فنى المكم بها عظة وذكرى ، ان الذكرى تنفع المؤمنين .

مصر قبيل الاحتلال

تولى توفيق حكم مصر فى ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ ، وكان مركز مصر الدولى حينذاك أعجوبة الأعاجيب ، فلا هى دولة مستقلة ولا هى ولاية تابعة لغيرها ، فهى من الناحية الدولية الرسمية ، وتبعا لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، تعتبر جزءا من أملاك الدولة العثمانية ، وقد اعترفت بهذه التبعية دول أوربا الكبرى ، انجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا والمجر ، والخديو وان كان يتولى الحكم بطريق الارث لأنه من سلالة محمد على فانه لم تكن له الحرية التامة فى التصرف فى شؤون مصر الداخلية والخارجية .

وليت الأمر وقف عند حد التبعية لتركيا ، اذن لهان الخطب ، ولسهل على مصر وهى تخطو وقتذاك خطواتها الوئيدة نحو التقدم أن تنفض عن كاهلها عبء هذه التبعية فى الوقت المناسب ، وخاصة أن تركيا كانت كما وصفها سياسيو أوربا بحق كالرجل المريض ، ترقص رقصة الذبيح وتعانى من حشرجة الموت .

ولكن الخطب كان أجسم فان فرنسا التى حاولت محاولتيها الفاشلتين فى عهدى لويس التاسع ونابليون ، وانجلترا التى حاولت محاولتيها الفاشلتين فى سنتى ١٨٠١ و١٨٠٧ لم يغرب عن خيالهما بعد هذا الحلم القديم ، حلم السيطرة على وادى النيل ، وقد مهد اسماعيل بسياسته المالية الخرقاء الفرصة لهاتين الدولتين للتدخل العملى فى شؤون مصر رغم هذه التبعية الدولية الشكلية لتركيا ، وفرضت الدولتان على مصر شبه حماية مشتركة حين أوجدتا نظام الرقابة الثنائية ، ذلك النظام الذى

جعل لانجلترا وفرنسا حق الاشراف الفعلى على شؤون مصر المالية والادارية ، ثم تطور هذا النظام الى تعيين وزيرين أوربيين فى الوزارة المصرية ، وبذلك فقدت مصر ذلك القدر الضئيل الذى كان لها من الاستقلال فى ادارة أمورها الداخلية .

ترى هل كان هذا وذاك هو كل ما بليت به مصر فى أواخر القرن التاسع عشر من أرزاء ؟

كلا ، بل لقد تكاثرت عليها البلايا التى أفقدتها مقوماتها كدولة والتى أفقدت المصريين كل حقوقهم كمواطنين ، فقد كان هناك نظام القضاء المختلط احدى هدايا اسماعيل ، وهو نظام غريب لم تعرفه دولة من دول العالم فى أى فترة من فترات التاريخ ، نظام يحد من سلطان مصر وسيادتها فى التشريع والقضاء ، ويخضع المصريين لمحاكم أجنبية فى كل شىء ، فى قضائها وتشريعها ، ولغاتها ، وهو الى هذا وذاك سند قوى لنظام الامتيازات الأجنبية ، كما أنه يفتح الباب على مصراعيه أمام الدول الأوربية للتدخل فى شؤون مصر المالية والادارية والتشريعية ، وفى كلمة واحدة أصبحت لهذه المحاكم سلطة أقوى من سلطة الحكومة المصرية ، بل لقد أصبحت دولة داخل الدولة .

وكان يصاحب هذه الأحوال الداخلية المضطربة ويعاصرها انتشار فكرة التسيطرية الاستعمارية Imperialism فى أوربا ، ومن علائمها ضغط انجلترا وفرنسا وتدخلهما العملى السافر الذى أدى الى خلع اسماعيل وتولية توفيق ، ثم هذا التدخل المالى والسياسى ، ثم اقدام فرنسا على غزو تونس وضمها لأملاكها فى سنة ١٨٨١ .

كل هذا أوجد فى مصر والشرق الأدنى حالة نفسية جديدة ، وانقلب اعجاب الشرقيين بالأوربيين الى شعور قوى بالسخط والكره والحقد ، وأخذت الأوربيين روح العزة والسيطرة ، واعتقدوا أنهم عنصر ممتاز من حقهم ألا يخضعوا لقوانين هذه البلاد المتأخرة فى نظرهم ، ومن حقهم أن يعدلوا فى قوانين مصر كما شاءوا وانما لصالحهم هم لا لصالح البلد وأهليه ، وتمادوا فى عتوهم فنظروا الى الحكام نظرة متعالية ، وعاملوهم باحتقار ، ووصفوهم بأوصاف تبعد عن الذوق والأدب والمجاملة .

وهكذا انقلب الوضع ، فبعد أن كانت الامتيازات الأجنبية تعتبر منحة من حكام مصر لحماية التجار الأوربيين ولتيسر لهم القيام بمهامهم التجارية أصبحت فى القرن التاسع عشر سلاحا قويا فى أيدى هؤلاء الأوربيين يستخدمونه لاذلال المصريين والسيطرة على جميع أموالهم ، وليحموا أنفسهم — فيما يدعون — من أوضاع الشرق الفاسدة ومن ظلم حكامه وسوء ادارة موظفيه ، ووجد المصرى نفسه بذلك غريبا فى بلاده ، وتعالى هؤلاء الأجانب ووقفوا دائما حجر عثرة فى سبيل كل اصلاح ، فقد اعتقدوا أن كل اصلاح سينتهى حتما بالقضاء على مصالحهم وعلى المركز الممتاز الذى يتمتعون به وعلى المكاسب التى تجد طريقها الى جيوبهم والى جيوبهم وحدهم .

وسط هذا الظلام الحالك كان المصريون يقلبون وجوههم فى كل اتجاه يلتمسون قيادة حكيمة تخرجهم من هذه المتاهة ، وتفهم عنهم آلامهم ، وتقدر آمالهم وتقودهم نحو الطريق السوى للتخلص من ربقة هذا التدخل الأجنبى الذى كانت تضيق قبضته حول رقابهم يوما بعد يوم ، وللخلاص من هذا الارتباك المالى الذى أنتجته سياسة اسماعيل .

وكان المصريون بعد هذا يتطلعون الى قيادة منهم تحقق آمالهم فى الحرية والاستقلال فقد كانت الدولة العلية صاحبة السيادة الاسمية فى شغل شاغل عن مصر ومشاكلها ، ولم يكن يعنيها الا أن تستعيد سلطانها العتيق الفعلى على مصر ، وكان توفيق صاحب العرش شخصية ضعيفة مترددة ، ومع هذا كان ديكتاتورى النزعة لا يؤمن ايمانا صادقا بالدستور أو الحياة النيابية أو حقوق الشعب ، وكان يعنيه أن يرضى دول أوربا قبل ارضاء المصريين وخاصة بعد أن شاهد بعينيه كيف عزل أبوه نتيجة لتدخل أوربا ، وهو الى هذا كله لم يكن يثق بمعظم رجال الحكومة وخاصة أولئك الذين كانوا يعملون مع أبيه .

أشاح الشعب المصرى اذن بوجهه عن الدولة صاحبة السيادة وعن الحاكم صاحب العرش ، وتطلع الى قيادة من بنيه ، ولم يطل انتظاره ، فقد ظهرت هذه القيادة فى شخص مصرى فلاح هو أحمد عرابى أحد ضباط الجيش .

وقد بدأت الحركة العرابية حين بدأت داخل الجيش ولاصلاح الجيش ، ولكنها لم تلبث أن تطورت فأصبحت ثورة عامة عارمة واحتضنت كل آمال الشعب ، وأخذت تعمل على تحقيقها . وتاريخ الثورة العرابية تاريخ غريب أو هو يبدو كذلك لمن ينظر الى التاريخ نظرة سطحية ، أو لمن لا يتعمق الأسباب ، ويدرس المقدمات ، ويربط بينها وبين النتائج .

ثورة تبدأ حركة ضعيفة فى ركن من الأركان ، داخل الجيش لاصلاح الجيش ولانصاف الضباط المصريين من اضطهاد السيطرة التركية الجركسية ، ثم تتطور الى أن تصبح ثورة عامة تنعقد عليها آمال شعب بأسره وتصبح اللسان المعبر عن كل ما يشكومنه الشعب من تدخل الأجانب ، ومن اضطراب الأحوال المالية ، ومن فقدان الحرية وضياع الكرامة ، وتتبلور هذه الآلام والآمال سريعا فتصبح أهدافا واضحة تعمل الثورة على تحقيقها ، وفى مقدمتها اصلاح الجيش واستعادة الحياة الدستورية . ثم ، ثم تنتهى هذه الثورة بالفشل بل وباحتلال دولة أجنبية لأرض الوطن ، وهذا أغرب الغرائب فى تاريخ الثورات .

كيف بدأت اذن هذه الحركة وما أسبابها ؟ وكيف تطورت فأصبحت ثورة ؟ ثم كيف أخفقت وانتهى الأمر بمجىء انجلترا الى مصر ؟

التاريخ لا يعرف المفاجآت ، بل ان المتعمق فى دراسته ودراسة فلسفته يرى أن له قوانين منطقية كقوانين الطبيعة ، فالحركة العرابية لم تظهر فجأة ، بل لقد كانت هناك مقدمات وأسباباً مهدت لظهورها ، ولعل أهم هذه الأسباب وأبرزها ظهور حركة الجامعة الاسلامية ونموها .

لبثت الدولة العثمانية تحكم دول الشرق الأوسط العثماني قرابة ثلاثة قرون حرصت في خلالها على أن تضع لهذه الدول نظما تربطها بالدولة وتديم سيطرتها على هذه الولايات أطول مدة ممكنة ، وأدت هذه النظم الى تشاحن القوى لابتزاز الأموال ، وتطاحنها للاستئثار بالسلطان ، فساءت الأحوال ثقافيا واقتصاديا وحربيا ، وابان هذا أغلقت الأبواب والنوافذ في هذه الدول فانقطعت الصلة تماما بينها وبين أوربا في وقت كانت أوربا تنهض فيه نهضة علمية صناعية حربية ، فلما وافى القرن التاسع عشر وبدأ الأوربيون يعملون لتحقيق أحلامهم القديمة والسيطرة على الشرق الأوسط الاسلامى ، وطرقوا الأبواب فلم يجدوا مدافعا ، لأن الدولة العثمانية نفسها كانت قد آل أمرها الى الضعف والانحلال ، وبدأ الأوربيون يزحفون نحو العالم الاسلامى زحفا وئيدا أكيدا ، باسم المال والاقتصاد حينا ، وباسم المصالح الأوروبية حينا آخر ، وباسم القوة الغاشمة حينا ثالثا ، عند ذلك ظهر شعور مضاد يعمل على تخليص العالم الاسلامى من سيطرة الغرب ، هذا الشعور هو الذى كون فكرة الجامعة الاسلامية ، فقد كان زعماء هذه الحركة ينظرون الى الماضى المجيد يوم كان العالم الاسلامى قوة لها شأنها فيجدون أنه كان قوة يوم أن كان وحدة غير منفصمة العرى ، وكانوا ينظرون مرة أخرى فيجدون عالمهم الاسلامى ضعيفا متخاذلا مغلوبا على أمره ، وكانوا يجدونه متفرقا منفصم العرى ؛ وقرنوا النظرة بالنظرة ، واعتقدوا — وكانوا محقين في اعتقادهم — أن الوحدة الجامعة كانت سبب القوة ، وأن الفرقة المتخاذلة هى سبب الضعف ، فآمنوا أن حاضرهم لا يصلح الا بما صلح به أولهم ، وبهذا ولدت فكرة الجامعة الاسلامية .

كان روح هذه الحركة وزعيمها الأول جمال الدين الأفغانى .

رجل كريم المحتد طيب المنبت ، يمتاز بذكاء خارق ، عاش في طرف قصى من أطراف العالم الاسلامى هو افغانستان وقت أن كان يتنازعها نفوذ الانجليز والروس ، وقضى حياته مرتحلا ، فزار الهند وبلاد العرب وايران ومصر ، وفي كل بلد اسلامى نزل به كان يرى أهله أذلة ، وكان يرى الأوربيين هم الأعلون سلطانا ونفوذا ، فحز في نفسه ما رأى ، وهاله ما شاهد ، فنادى بفكرة الجامعة

الاسلامية ، وكان سلاحه الأكبر لتحقيق هذا الهدف ايجاد نظام حكم دستورى ، لأنه بعد تجارب متكررة يئس من حكام هذا الشرق الاسلامى ومن احتمال أن يعاونوا على اقالة العالم الاسلامى من عثرته ، بل لقد آمن أن هؤلاء الحكام بنزعاتهم الاستبدادية القوية عامل آخر من عوامل التأخر ، فهم والنفوذ الأوربى آفتان يجب القضاء عليهما معا للنهضة بالعالم الاسلامى ، والسبيل الى ذلك وحدة اسلامية ونظام برلمانى دستورى .

وكان أنبغ تلاميذ الأفغانى هو الشيخ محمد عبده المصرى ، أخذ عنه مبادئه ، وشاركه منفاه ، وعاونه فى اصدار مجلة العروة الوثقى ، ثم كان قطبا من أقطاب الثورة العرابية عند مولدها ، ثم كانت له جهود مشكورة فى اصلاح الأزهر .

هذا سبب عام أثر فى مصر كما أثر فى غيرها من أجزاء العالم الاسلامى ، ومهد لظهور الثورة العرابية كما مهد لظهور ثورات أخرى فى أجزاء أخرى من العالم الاسلامى .

يضاف الى هذا عوامل أو أسباب أخرى خاصة بمصر ، لعل أبرزها انتشار روح التذمر نتيجة لازدياد نفوذ الأجانب ماليا وسياسيا ، وانشاء صندوق الدين ، وتخصيص الجزء الأكبر من موارد البلاد لصالح الدائنين ، واستعلاء الأجانب ، واعتمادهم على الامتيازات الأجنبية والقضاء المختلط لعرقلة كل اصلاح قضائى أو مالى أو ادارى داخل البلاد .

وصاحب هذا كله ظهور وعى قومى جديد نتيجة لانتشار التعليم النسبى وازدياد عدد المتعلمين ، وتقدم الصحافة ، والتجارب البرلمانية الأولى التى أتاحت للمصريين فرصة مناقشة أحوالهم فى أواخر عصر اسماعيل . ولم يعمل الساسة والحكام من جانبهم على تغذية هذا الوعى القائم الوليد وتنميته ، بل على العكس عملوا على كبته ومحاربته ، فتوفيق كما أشرنا دكتاتورى النزعة ، وكبير نظاره رياض على شاكلته يعمل على تقييد حرية الفكر ويضطهد كل مناوىء لسياسته .

وأخيرا أتت القشة التى تقصم ظهر البعير — كما يقول المثل — وظهر الخلل فى الجيش ، وذلك حين اضطربت الأحوال المالية فى أواخر عهد اسماعيل ، فأهمل الجيش كما أهمل غيره من مرافق البلاد ، وعجزت الحكومة عن دفع مرتبات الجند والضباط ، فانتشرت روح التذمر فى صفوفهم ، وفقدوا ثقتهم بالحكومة ، وضاعت هيبة الحكام عندهم ، وتطورت الأمور من سيىء الى أسوأ حين استبد الضباط الأتراك بالأمور وعملوا على اضطهاد الضباط المصريين وابعادهم عن الوظائف الكبرى فى الجيش .

عند ذلك اشتد ضغط البخار الى درجة أن الاناء لم يعد يحتمله الا أن يجد منفذا ومتنفسا فى أحد جوانبه ، وكان المنفذ والمتنفس فى ركن الجيش ، وعند ذلك ولدت الحركة العرابية لتبدو فى ظاهرها وأول أمرها أنها حركة جانبية مقصورة على الجيش وحده .

ولم تكن مطالب عرابى عسيرة التحقيق ، أو أعجوبة من الأعاجيب ، ولكنها كانت مطالب شرعية ، يهدف بها الى تحقيق أمانى الشعب ، فكان يطلب زيادة عدد الجيش ، واتاحة الترقية للضباط المصريين كما تتاح للجراكسة والأتراك ، واعادة الدستور ، ولكن توفيقا كان استبدادى النزعة ، وكانت تسنده دول أوربا بقناصلها المقيمين فى مصر ، لا يريدون لهذا الشعب تقدما أو رقيا ، بل يريدون اضعافه ليضربوا ضربتهم المبتغاة من زمن طويل ، وتحرج الموقف بين زعيم الشعب وبين الخديو ، وكانت مقابلة عابدين ، التى قال فيها توفيق قالته الأثيمة :

" أنا خديو البلد وأعمل زى ما انا عايز " .

ولكن البطل عرابى رد عليه رده الوطنى المشهور :

" نحن لسنا عبيدا ولن نورث بعد اليوم " .

ولعبت انجلترا لعبتها الماكرة واصطنعت حادثة المالطى مع المكارى فى الاسكندرية لتثبت أن الحكومة عاجزة عن حفظ الأمن ، وعن حماية أرواح الأجانب المقيمين فى مصر ، ولتمهد بذلك السبيل لضرب الاسكندرية ، وتحقيق

حلمها القديم باحتلال أرض الكنانة ، وقد نجحت فعلا أساليب انجلترا الماكرة ، وبدأ أسطولها يضرب حصون الاسكندرية فى صباح ذلك اليوم الكريه ، يوم ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ ، وتطورت الحوادث فى سرعة عجيبة ، وانتهى الأمر باحتلال انجلترا لمصر ، فكيف بدأ ضرب الاسكندرية وكيف تم الاحتلال ، ثم كيف ظل شعب مصر يقاوم هذا الاحتلال أربعة وسبعين عاما لم يهدأ خلالها لحظة واحدة ولم ين عن النضال فى سبيل استعادة حريته الى أن نجح أخيرا فى تحقيق هذه الأمنية الحبيبة ؟؟

انها قصة شعب طيب الأعراق قدم للانسانية أقدم حضارة عرفها العالم .

انها قصة شعب جلد مصابر يعشق الحرية ويضحى فى سبيلها بكل رخيص وغال .

بدأت هذه القصة عند ما رنت انجلترا ببصرها نحو مصر تريد أن تستأثر بها وخاصة بعد أن استولت فرنسا على تونس فى سنة ١٨٨١ . فنحن لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان مصير مصر قد قرر فى نفس الوقت الذى استولت فيه فرنسا على تونس ، فقد بدأت انجلترا ترسم سياسة واضحة المعالم للتدخل وحدها فى شؤون مصر ، وكانت الفرصة مواتية لأنها اعتقدت أن دول أوربا لن تعترض على تدخلها ، ولن تثير الصعاب فى سبيلها .

موقف الدول

ان المانيا ومعها النمسا والمجر لم يكن يعنيها أمر مصر فى كثير أو قليل ، بل لعلها كانت ترحب بتدخل انجلترا فى شؤون مصر ، على أن تترك لها حرية التصرف فى مشاكل أوربا الداخلية ، أما ايطاليا فقد كان يؤلمها أن تنفرد انجلترا بالتدخل فى شؤون مصر ، فقد كانت لها هى أيضا أطماعها فى مصر ، وكانت لا تزال تراودها أحلام الامبراطورية الرومانية القديمة ، ولكن ايطاليا فى ذلك الوقت لم يكن لها وزن من الناحية الحربية أو المالية فى الميدان الدولى ، لهذا لم يحس أحد بألمها ولم يدخل أحد غضبتها فى حسابه .

أما روسيا فقد شابهت المانيا والنمسا والمجر ، أى أنها لم تكن تمانع فى أن تعمل انجلترا للاستيلاء على مصر ما دامت تترك لها حرية التصرف فى بلاد البلقان .

ولكن بقيت هناك فرنسا ، ولفرنسا فى مصر ذكريات يرجع أبعدها الى أيام لويس التاسع ، ويرجع أقربها الى حملة نابليون ، ومنذ فشلت هذه الحملة وفرنسا تعتبر مصر ميدانا لنشاطها الثقافى والاقتصادى ، بدأت هذا النشاط فى أيام محمد على وكانت آخر مظاهره تحقيق مشروع قناة السويس على يد مهندسها ديلسبس ، لهذا كانت فرنسا ترقب محاولات انجلترا فى مصر دائما بعين يقظة ، وأقصى ما استطاعته أنها حرصت دائما ألا تترك انجلترا تتدخل وحدها فى مشاكل مصر المختلفة ، وقنعت بأن تشترك معها دائما فى الاشراف على هذه المشاكل والعمل على حلها بما يتفق ومصالح الدولتين معا ، انجلترا وفرنسا ، ولكن انجلترا بدأت منذ احتلال فرنسا لتونس تعمل على أن تنفرد وحدها بالتدخل فى شؤون مصر ، فقد أيقنت أن فرنسا لن تثير بعد هذا اعتراضا جديا قويا ضد تدخلها فى مصر ، وهى لو حاولت الاعتراض فلن يكون لاعتراضها وحدها أثر ذو أهمية .

ومع هذا فقد حرصت فرنسا على ألا تترك لانجلترا الفرصة للتدخل وحدها فى شؤون مصر ، ولم تجد انجلترا بدا من قبول هذا الوضع ولكنها استعانت بدبلوماتيتها وسياستها الماكرة الى أن استطاعت أن تتخلص من هذه المشاركة فى الوقت المناسب ، وعند ذلك ضربت ضربتها الناجحة .

وتفصيل ذلك أن الدولتين أقضت مضاجعهما الثورة العرابية ووجدتا فى نجاحها قضاء على مصالحهما ومصالح رعاياهما ، لهذا أقدمتا على ارسال مذكرة مشتركة الى مصر ، وقدم هذه المذكرة قنصلا الدولتين فى ٨ يناير سنة ١٨٨٢ الى الخديو ، وفيها تتعهد الحكومتان بتقديم عونهما الى الخديو ومساعدته ضد الثائرين ، والعمل على استقرار النظام القائم فى مصر .

فرح توفيق بهذه المذكرة فقد وجد فيها ضمانا كافيا لتقوية مركزه ، وبذلك زادت الشقة بعداً بينه وبين الشعب ، أما رجال الجيش فقد أثارتهم هذه المذكرة واعتبروها تدخلا سافراً فى شؤون مصر ، وبدأوا يفقدون ثقتهم فى انجلترا ،

ورفضت وزارة شريف المذكرة وأبلغتها للباب العالى ، وانطلق رجال الجيش فى طريقهم وتوثقت الصلة بينهم وبين نواب الشعب ، وبدأت الثورة تتبلور لتتخذ شكلها العام المعبر عن آمال المصريين جميعاً وعن سخطهم على الدول الأوربية .

وكانت تقارير القناصل الأوربية ، وخاصة تقارير " مالت " قنصل انجلترا ، تصور الحركة العرابية ونموها صورة مشوهة قاتمة ، وتدعو الدول ، وخاصة انجلترا ، للتدخل السريع الفعلى لحسم الموقف وايقاف مطامع المصريين عند حدها ، وثارت ثائرة فرنسا وانجلترا بوجه خاص عندما أعلنت وزارة محمود سامى البارودى دستور ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ ، وعندما أحسا أن الثائرين يفكرون جديا فى خلع توفيق بعد أن فقدوا الثقة به ، وعند ذلك اقترح " فريسنيه " وزير فرنسا الأول أن ترسل الدولتان أسطولا مشتركا للمياه المصرية لارهاب وزارة البارودى كى تقف باطماعها عند حد ، ورحبت انجلترا بالاقتراح ، فهذه فرصتها المواتية التى ظلت تحلم بها أجيالا طويلة .

وأبحر أسطول فرنسى وآخر انجليزى الى مياه الاسكندرية ، وأوعزت الدولتان الى قنصليهما ألا يعترفا الا بسلطة الخديو وأن يطلبا منه اقالة الوزارة ، وتردد توفيق كعادته ، ولكن الوزارة عند تحرج الموقف اضطرت الى الاستقالة وان كان الجيش قد أصر على بقاء عرابى .

وتحرج الموقف شيئا فشيئا ، وزاد سخط المصريين ، وزاد ضغط الدولتين للتدخل فى شؤون مصر وحدها . وأثار وجود الأسطولين فى مياه الاسكندرية شعور المصريين ، ووسط هذا كله انتشرت الشائعات ، وشاعت الأراجيف أن الأساطيل الفرنسية الانجليزية ستعمل على ضرب الاسكندرية ، فعم الذعر الأهلين .

ولم تكن هذه الشائعات بعيدة عن الحقيقة ، فقد كان الأسطول الانجليزى بوجه خاص يمهد جاداً لضرب الاسكندرية ، ولكنه كان يبذل الجهد ليتخلص من الشريك المنافس ولينفرد وحده بضرب المدينة ، ولا عبرة لما يقوله بعض

المؤرخين الانجليز بأن "سيمور" أمير الأسطول البريطانى تصرف من تلقاء نفسه ليحقق لشخصه مجدا ذاتيا ، فانهم يقولون ان الأوامر كانت قد صدرت الى أسطول بحر المانش كى يبحر لينضم الى أسطول سيمور ، وكان الأميرال دويل "Dowell" قائد أسطول المانش أرقى منصبا من "سيمور" ، فاذا انضم الأسطولان كانت القيادة لدويل ، وبذلك ينسب شرف الانتصار اليه اذا تم للأسطول البريطانى الانتصار عند ضرب قلاع الاسكندرية ، لهذا أسرع "سيمور" بضرب الاسكندرية .

ولكن تطور الحوادث يثبت اثباتا قاطعا أن الأسطول الانجليزى خرج ولديه خطة واضحة للعدوان ، وعليه أن يستغل الأحداث والأسباب ، فان لم يجد مبررا فعليه أن يلتمس الأحداث والأسباب وأن يختلقها اختلاقا . والمبررات التى التمسها "سيمور" لضرب الاسكندرية فيها الدليل كل الدليل .

هذه المبررات تتلخص فى أن المصريين بدأوا يعملون على تقوية حصون الاسكندرية وترميمها وتقويتها ، واعتبر "سيمور" أن هذه الاستعدادات تهديد لبوارجه وأسطوله الواقف فى ميناء الاسكندرية .

واعجب معى لهذا الذى قيل ، واذكر معى قصة الحمل والذئب ليتضح لك وجه الباطل فى هذا الذى قيل ، والا كيف يعقل أن يقترب اللصوص من دارى فاذا عملت على تقوية أبواب الدار واصلاح اقفالها وترميم نوافذها للدفاع عن الدار اذا فكر اللصوص فى اقتحامها أو سرقة ما بها قيل لى أنت المدان ، فى هذه الاصلاحات والاستعدادات اعتداء على هؤلاء اللصوص وتهديد لكيانهم ، فاذا لم توقفها اضطروا لاقتحام الدار دفاعا عن أنفسهم .

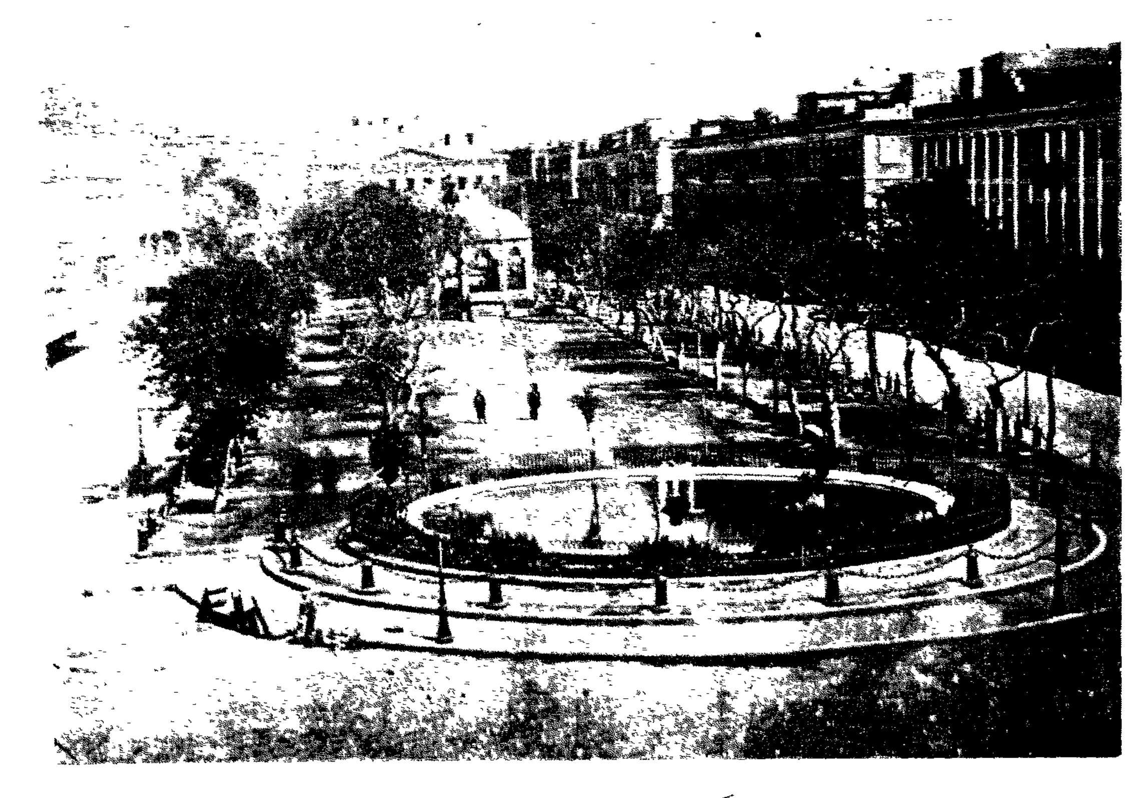
انى لا أبتدع هذا القول ابتداعا ولا أرويه على سبيل الفكاهة ، ولكنه الحقيقة كل الحقيقة ، هذا ما قاله الأميرال الشجاع "سيمور" للحكومة المصرية ، ولم تبلغ فرنسا من الذكاء ما بلغه "سيمور" فى ذلك الوقت ، فاجتمع مجلس وزراء فرنسا وقرر أنه لا يستطيع أن يصدر أوامره الى الاميرال "كونراد" قائد الاسطول الفرنسى بالاشتراك مع "سيمور" ليمنعا بالقوة بناء الحصون أو نصب المدافع فى قلاع

الاسكندرية . وأخبر مسيو "فريسنيه" رئيس وزراء فرنسا سفير انجلترا فى باريس أن الحكومة الفرنسية تعتبر هذا التصرف لو تم عملا عدائيا هجوميا ضد مصر ، والاشتراك فى مثل هذه الحرب فيه اخلال بنص الدستور الذى يحظر الدخول فى حرب دون موافقة مجلسى النواب والشيوخ . وتبع هذا أن أرسل "فريسنيه" الى "كونراد" قائد الأسطول الفرنسى يأمره ألا ينضم الى "سيمور" اذا وجه انذارا نهائيا للمصريين بشأن التحصينات ، واذا أصر "سيمور" على ضرب المدينة فانه يجب على "كونراد" أن يتراجع بسفنه وألا يشترك مع "سيمور" فى هذا الضرب .

الانجليز وضرب الاسكندرية أو قصة الذئب مع الحمل

بهذه التعليمات الصادرة فى ٥ يوليه سنة ١٨٨٢ خلا الجو لسيمور فأسرع باتخاذ الاجراءات لتحقيق خطته قبل أن تراجع فرنسا نفسها ، وعلى الرغم من أن وكيل نظارة الحربية المصرية ذهب يوم ٦ يوليه لمقابلة "سيمور" ، وقدم له تقريرا أكد له فيه أن الأعمال الاصلاحية فى القلاع قد أوقفت ، وأن هذه الأعمال لم يكن يقصد بها تهديد الأسطول البريطانى أو الاضرار به ، فان "سيمور" لم يقتنع ولم يرعو ، فان قصة التحصينات وتهديد الأسطول لم تكن الا خرافة أو تعلة يحاول بها أن يبرر هذا العدوان . تعلة لم تكن تقرها المبادىء الانسانية أو القوانين الدولية أو الحكمة المنطقية ، وانما كان يقرها شىء واحد هو شريعة الغابة ، الشريعة التى تبيح للقوى العدوان على الضعيف .

وفى هذه اللحظة تحرك قناصل الدول الأوربية الموجودون فى الاسكندرية ، تحركوا لا للدفاع عن مصر والمصريين ، بل للدفاع عن حقوق رعاياهم وأرواح رعاياهم وأملاك رعاياهم ، فأرسلوا فى ٧ يوليه مذكرة مشتركة وقعوا عليها جميعا الى الاميرال "سيمور" يسألونه هل اقتنع برد الحكومة المصرية ورضى بتأكيداتها أم أنه لا زال



هكذا كان يبدو ميدان المنشيه

[قبل الع[illegible]]

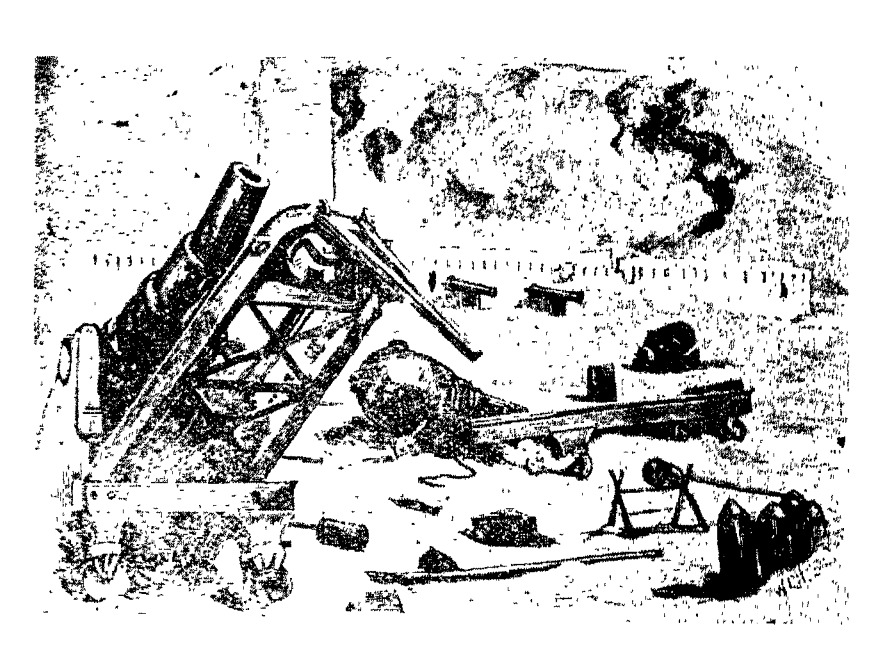


وهكذا أصبح ميدان العتبة

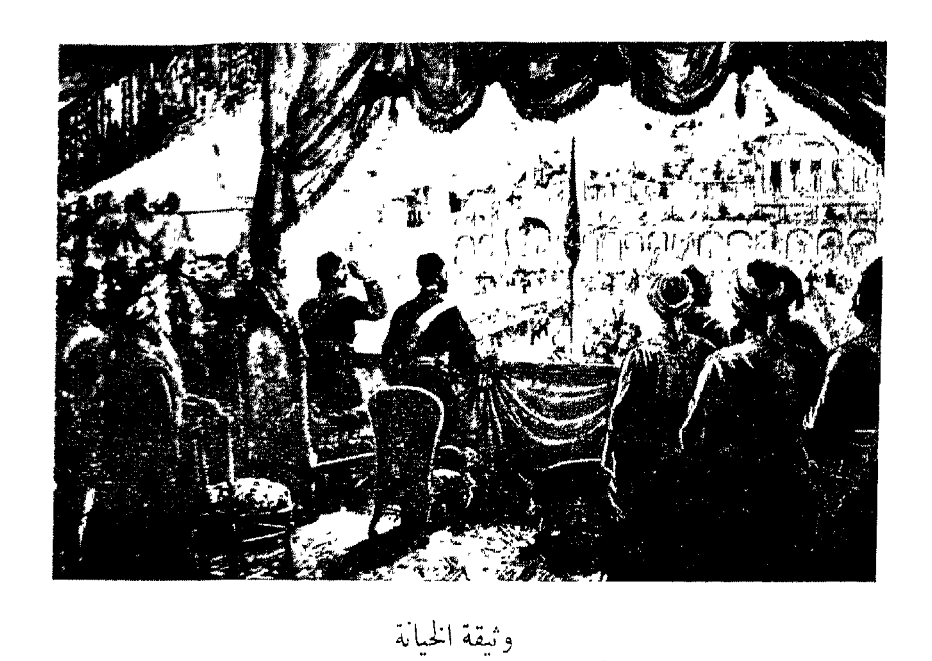
[بعد المعركة]



[هكذا وقف جنود مصر وأبطالها ، فى احدى قلاع الاسكندرية ، يدافعون عن الوطن ضد العدو المغتصب]

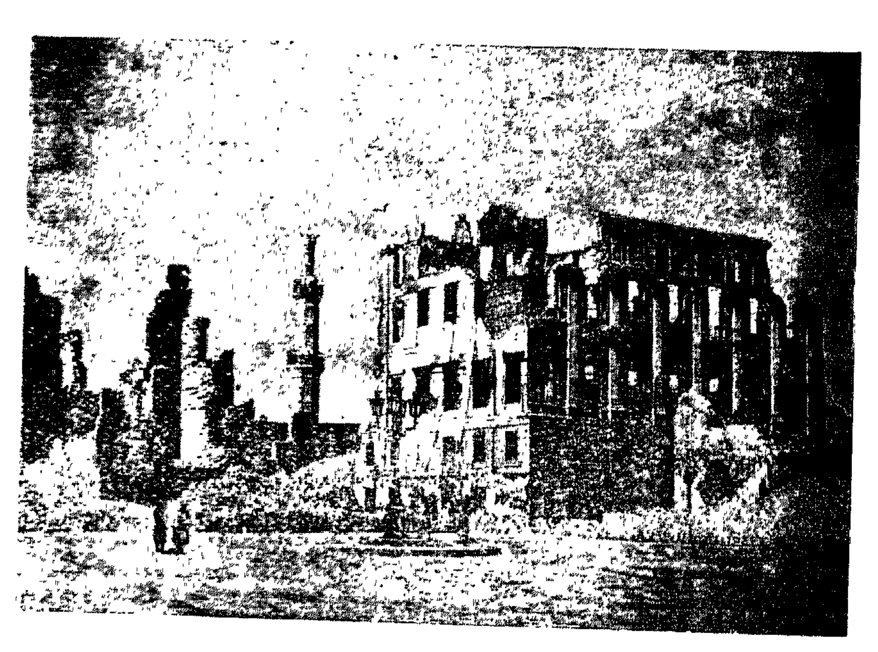


[وهكذا كانت تبدو طابية قايتباى بعد المعركة ، وكل قطعة من سلاح تشهد أن جنود مصر دافعوا عن حصنهم أمجد دفاع]



وثيقة الخيانة

[انه توفيق يستعرض جنود الاحتلال
في قلب القاهرة ، في ميدان عابدين]



آثار التخريب

[في ميدان مسجد الشيخ ابراهيم باشا]

عند رأيه فى ضرب الاسكندرية ، فانه لا يمكن أن يتم ضرب الاسكندرية — كما يقولون — "بدون أن يجر أخطارا جمة على المسيحين والأهالى معا ، ولا بدون تدمير ما لا يحصى من أملاك الأوربيين" .

وأسرع السيد سيمور بالرد على السادة القناصل فى نفس اليوم ، وتكاد كل كلمة من كلمات خطابه تنطق بأن الأمر مبت ، وأنه لا مفر من ضرب الاسكندرية ، فهو يرغب فى تأكيدات أوفى " لأن التأكيدات المكتوبة مهما تكن عباراتها قليلة القيمة بالنسبة للمصالح التى اؤتمنت عليها " .

ثم هو يطمئنهم على أملاك الأوربيين وأرواحهم لأنه لن يضرب المدينة بل سيكتفى بضرب القلاع ، فانه يقول فى خطابه للسادة القناصل :

" ويلزمنى أن أبين لكم أنى لا أنوى ولا قلت مطلقا أنى أقصد أن أضرب مدينة الاسكندرية ، فان أعمالى الحربية اذا أمست ضرورية فستوجه الى الحصون ، ولا أرى سببا للخوف من وقوع تلف يصيب الأملاك الخصوصية التى أنتم من أجلها فى وجل " .

فالسيد قائد الأسطول البريطانى والسادة قناصل الدول الأوربية لايعنيهم من أمر الضرب الا حماية أرواح الأوربيين وأملاكهم ، وهذا هو مدى فهمهم للقيم الانسانية ، فلا ناس الا الأوربيون ، أما أصحاب البلد وأما أملاك المصريين وأما مصر نفسها فالى الجحيم فى سبيل تحقيق مآرب السيد الأوربى وفى سبيل سيادته ورفاهيته .

ومع هذا فان الأميرال "سيمور" لم يف بوعده ، وسنرى بعد قليل أن الضرب لم يقف عند القلاع ، بل انصب على المدينة كلها لخرب معظم أحيائها تخريبا بشعا لا زالت تشهد به الصور التى أخذت للمدينة قبل الضرب وبعده .

وكان "سيمور" متلهفا على تحقيق بغيته ، فعلى الرغم من تأكيدات المصريين له فى ٦ يوليه بأن التحصينات قد أوقفت فقد استأنف فى اليوم التالى وهو يوم ٧ يوليه فصلا جديدا من قصة الذئب والحمل ، فأرسل الى قائد الاسكندرية الحربى

يخبره أنه قد علم بأن مدفعين جديدين قد نصبا فى اليوم السابق فى خطوط الدفاع المشرفة على البحر ، وأن بعض الاستعدادات الحربية على وشك الانتهاء ، والقصد منها — كما يقول فى خطابه — :

" تهديد الأسطول الذى تحت قيادتى ، فيجب على والحالة هذه أن أعلنكم أنكم ان لم تأمروا بالاقلاع عن هذه الأعمال أو تكونوا قد أمرتم بالاقلاع عنها يكون واجبى ضرب الحصون الجارى فيها البناء " .

وأسرع طلبة عصمت قائد القوات المصرية بالاسكندرية فرد عليه مؤكدا أن هذه الأخبار عارية عن الصحة .

قال الدئب للحمل عند ما أفحمه الحمل بردوده المنطقية التى تثبت براءته : " اذن فهو أبوك أو عمك الذى عكر على الماء " ثم انقض عليه فافترسه .

وعند ما أفحم " سيمور " ظل يومى ٨ و ٩ يوليه يتلمس سببا جديدا فلما لم يجد شيئا أرسل الى قائد القوات المصرية فى ٩ يوليه هذه البرقية :

" ايماء الى برقيتى المؤرخة فى يوم ٤ يوليه ١٨٨٢ أقول انه ليس هناك أدنى ريب فيما يتعلق بالتسليح ، وانى سأخطر قناصل الدول الأجنبية غدا عند شروق الشمس وأشرع فى الضرب بعد ٢٤ ساعة ان لم تسلم الى الحصون القائمة على البوغاز والتى تشرف على الميناء " .

وانقض سيمور ببوارجه على الاسكندرية .

الآن حصحص الحق ، فالمصريون مهما أكدوا كاذبون ، والسيد " سيمور " صادق ولا شك فى صدقه ، وما دام يقول ان التحصينات مستمرة فيجب أن تكون التحصينات مستمرة ، وعلى المصريين الآن اما أن يسلموا قلاعهم أو حصونهم عن طيب خاطر ، والا فان الأميرال " سيمور " يكون مضطرا لضربها للدفاع عن نفسه وعن أسطوله .

واقرأوا معى أيها المصريون هذه البرقية الثانية التى أرسلها مستر " كارترايت من ظهر البارجة "هاليكن Helicon " — احدى سفن الأسطول البريطانى . . فى نفس اليوم وهو ٩ يوليه الى وزير خارجية انجلترا :

" سيدى اللورد

أتشرف باخباركم أنه اتصل بالأميرال سير بوشامب سيمور أن مدفعين جديدين نصبا صباح اليوم بحصن السلسلة القائم تجاه الميناء الجديد ولا يستطيع الأميرال أن يلازم الصمت حيال هذا العمل العدائى . فقرر أن يطلق النار عند شروق شمس يوم الثلاثاء ١١ الجارى " .

ياللهول !! لقد جرؤ المصريون على نصب مدفعين فى أحد الحصون . انهم بهذا يهددون الأسطول البريطانى الهادىء المسالم ! !

انها ملهاة عجيبة تحتاج شاعرهم العظيم شكسبير ليصيغ منها مسرحية خالدة . وليسجل فيها وحشية المصريين الذين جرؤوا على نصب مدفعين قديمين قد علاهما الصدأ ولا تكاد قذائفهما تنطلق حتى تتساقط فى مياه البحر على بعد أمتار قليلة . وليسجل فيها أيضا انسانية الأسطول الانجليزى الذى أبى الا أن يضحى ببعض جهوده وقذائفه لتأديب هؤلاء المصريين المتوحشين ولمنع عدوانهم ، وذلك بتخريب قلاعهم ومدنهم وسلب حريتهم واستقلالهم واستغلال مواردهم وثرواتهم .

ومضى الأميرال الشجاع "سيمور" فى كتابة بقية فصول القصة .

المصريون الوطنيون الثائرون لحريتهم وكرامتهم هم العدو كل العدو . وهم الهدف كل الهدف .

أما الأجانب من كل لون وجنس فهم عنصر ممتاز يجب حمايته حتى لا يناله ضر أثناء الضرب والعدوان .

وأما صاحب العرش ، الخديو توفيق ، فهو حليفهم الأكبر فمن الواجب أيضاً أن تشمله رعايتهم وحمايتهم .

وهذه أعجوبة أخرى من أعاجيب هذه القصة ، فانك لن تجد فى كتب التاريخ مهما قرأت أن عدوا يهاجم بلدا فينضم صاحب العرش الى العدو المهاجم ويحالفه ضد شعبه ورعيته ، ولكن هكذا شاء توفيق وهكذا ضرب للخيانة مثلا فذا لن تجد له شبيهاً أو مثيلا .

وفى نفس اليوم ، ٩ يوليه ، أرسل مستر "كارترايت" مذكرة الى قناصل الدول ، هذا نصها :

" سيدى

أتشرف باخباركم أنه من المرغوب فيه اعلان كافة الاشخاص التابعين لحكومتكم بأن يكونوا فى البواخر الراسية فى الميناء فى مدة ٢٤ ساعة تمد من تاريخ هذا الاعلان " .

وهذه البرقية وحدها تثبت فى وضوح أن أكذوبة المدفعين لم تكن الا تعلة ، وأن ضرب الاسكندرية كان أمراً معداً ، تتخذ لتنفيذه الخطوات فى ترتيب منظم محكم .

وسعى الانجليز فى نفس الوقت الى حليفهم الأكبر الخديو توفيق للاتفاق على خير السبل لتأمين حياته ، ويذكر أحمد شفيق (باشا) فى مذكراته أن مستر كارترايت أشار على الخديو توفيق أن ينزل هو وأسرته الى احدى البوارج الانجليزية ليكون فى مأمن مما عساه أن يصيب سراى رأس التين لأنها عرضة لقذائف المدرعات ، فأبى .

والرواية على هذا الوضع قد يفهم منها أن الرجل كان وطنياً مخلصا ، فقد أبى أن يقبل حماية الانجليز له ، ولكن اسمع ما قاله مستر "كارترايت" فى برقية

أرسلها الى "لورد جرانفيل" فى ٧ يوليه ، يخبره فيها بمقابلة تمت بين الخديو والسير "اوكلاند كلفن Auckland Colvin" ، وينقل اليه فيها ملخص ما دار بين الرجلين من حديث ، قال فيها :

" وأعرب سموه (الخديو) عن نيته فى الانصراف هو ودرويش باشا الى أحد القصور القائمة على شاطىء المحمودية اذا كان الضرب من جانب الأسطول الانجليزى ، وأنه بقدر الاسراع فى انجاز الضرب يقل الخطر الذى يحيق بشخص الخديو .

وكان سموه أثناء المقابلة رابط الجأش ، يتكلم بصوت هادىء ، واختتم الحديث بتوجيه الرجاء الى سر "أوكلاند" أن يبلغ قراره هذا الى سعادتكم .

ولقد عقدت العزم على أن أخبر درويش باشا أنه فى حاله حدوث ضرب تلقى حكومة صاحبة الجلالة البريطانية عليه مسؤولية سلامة الخديو الشخصية وأمنه " .

ومضى الأميرال "سيمور" قدماً فى تنفيذ خطته ، فأرسل مستر "كارترايت" قنصل بريطانيا فى الاسكندرية خطاباً الى درويش باشا — مبعوث السلطان — فى يوم ١٠ يوليه يبلغه بانسحابه من المدينة وبقطع العلاقات بين بريطانيا ومصر ، وختم خطابه بالاشارة الى الموضوع الهام الذى يعنى بريطانيا ، وهو سلامة سمو الخديو ، قال فى ختام خطابه :

" ثم أخبركم أننى مكلف بأن أعلن سعادتكم بالضرورة الماسة لكفالة سلامة سمو الخديو فى كل الظروف ، وأن حكومة جلالة الملكة تأمل من سعادتكم أن تشملوا وقاية سموه وأسرته بكل أنواع الاحتياطات التى تستدعيها الأحوال باستعمال نفوذكم المستمد من نيابتكم عن جلالة السلطان " .

وكان درويش باشا أحكم من الخديو توفيق وأكثر منه وطنية .

درويش باشا التركى ونائب السلطان ، انبرى فى رده يدافع عن توفيق صاحب العرش ويبرهن على أن سموه يعنى بسلامة الوطن عنايته بسلامة شخصه ، فقد قال درويش باشا فى ختام رده على مستر "كارترايت" :

" أما التنبيه الذى وجهتموه الى أن أكفل بكل ما لدى من الوسائل سلامة سمو الخديو ، فيجب على أن ألفت أنظاركم الى أنه ليس من الصواب ايجاد تمييز بين شخصية سمو الخديو توفيق باشا السامية وحكومته ، وانه لمن الطبيعى جداً أن سموه ما زال يعنى بسلامة وهناء البلاد التى يحكمها أكثر مما يعنى بسلامة شخصه " .

هذا دفاع كنا نحب أن نسمعه من توفيق ، ولكننا نطلب المستحيل لو طالبنا توفيقاً بمثله ، فسنرى الخيانة مجسمة فى كل حركة من حركات توفيق بعد ذلك ، سنراه يفر بروحه الى سراى بعيدة عن الميناء يقيم فيها آمناً ليشاهد الاسكندرية العظيمة وقنابل الأسطول تخرب مبانيها وتقتل جنودها وأهليها ، وسنراه ينتقل الى سراى رأس التين ليرحب بالانجليز عند نزولهم ، وسنراه يستعرض جيوش بريطانيا فى ميدان عابدين ، وسنراه يفعل كل ما من شأنه التمكين للاحتلال البريطانى فى أرض وادى النيل . فاذكروا هذا أيها المصريون ولا تنسوه .

وفى ١٠ يوليه أرسل الأميرال "سيمور" خطابا آخر الى قائد الاسكندرية الحربى يشير فيه الى خرافة الاستعدادات الحربية وينبئه فيه بأنه مصمم على تنفيذ وعيده وأنه سيبدأ ضرب الاسكندرية عند شروق شمس يوم ١١ يوليه .

وعند ذلك حاول المصريون محاولة أخرى لايقاف هذا العدوان المتوقع ، فذهب راغب باشا رئيس النظار بنفسه لمقابلة الأميرال "سيمور" فى البارجة "انفنسيبل" — مقر القيادة — وبعد نقاش طويل تنازل السيد "سيمور" وعرض على الوفد

الذى يفاوضه تعديلا جديدا ملخصه أن يعمل المصريون على ازال كل المدافع الموجودة فى الحصون والقلاع المشرفة على البحر ، وأن يقوم بهذه العملية الجنود المصريون تحت اشراف ضباط من الانجليز .

يالمهانة !! أى دولة فى العالم وأى جيش محترم يستطيع أن يقبل هذا العرض ؟؟

وحمل راغب باشا هذا الاقتراح الى المصريين ووعد أن يرسل الرد عليه فى مساء نفس اليوم ١٠ يوليه .

واجتمع مجلس كبير فى رأس التين حضره توفيق ودرويش والنظار والقواد والأعيان ، واختلفت الآراء ، وكان من بينها ما يريد قبول الانذار ، ولكن بعد مناقشات طويلة قرر المجتمعون أن يرسلوا الرد التالى الى "سيمور" ، وهو رد مشرف ، نرى أن نثبته هنا بحروفه فهو وثيقة شرف لآباء لنا ، أبوا — رغم قوة العدو وتفوقه حربيا — قبول الضيم ، أو التهاون فى الدفاع عن حقوقهم وحقوق الوطن عليهم . وفيما يلى نص الرد :

" لم تعمل مصر شيئا يقضى بارسال هذه الاساطيل المتجمعة ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية أى عمل يسوغ مطالب الأميرال الا بعض اصلاحات اضطرارية فى أبنية قديمة ، والطوابى الآن على الحالة التى كانت عليها عند وصول الأساطيل ، ونحن هنا فى وطننا وبيتنا ، فمن حقنا بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التى تقول الحكومة الانكليزية أنها باقية بيننا .

ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ولا أية طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح .

فهى لذلك تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم ، وتوقع مسئوليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم اما عن هجوم الأساطيل أو عن اطلاق المدافع على الأمة التى تقذف فى وسط السلام القنبلة الأولى على الاسكندرية ، المدينة الهادئة ، مخالفة بذلك لأحكام حقوق الانسان ولقوانين الحرب .

وأيضا تقرر من باب المسالمة قبول ازال ثلاثة مدافع يختارها الأميرال ، واذا أبى وأصر نلقى عليه مسؤولية التعدى ، وذلك بعدم المجاوبة الا بعد اطلاق القنبلة الخامسة " .

وحمل هذا الرد ضابطان مصريان الى البارجة الانفنسبل فجر يوم ١١ يوليه ، ولكن الجواب الطبيعى كان الرفض ، وكان الانجليز كراما فانتظروا حتى حمل الضابطان المصريان الرد ووصلا به الى البر ، ثم اعطوا الاشاره باطلاق النار .

هل حقيقة ان هذه الاستعدادات الحربية كانت تهدد الاسطول البريطانى ؟ أحسبنى لست فى حاجة الى دحض هذه الفرية ، ولكنى مع هذا اقتبس هنا ما قاله محام انجليزى كان يعيش فى الاسكندرية فى ذلك الوقت وشهد هذه الوقائع بنفسه ، قال هذا المحامى مستر " رويل Royle " فى صفحة ٦٣ من كتابه " المواقع المصرية *The Egyptian Campaigns* " تعليقا على انذار " سيمور " النهائى :

" ان الخطر الذى كانت تستهدف له بوارج الأميرال نتيجة للاستعدادات المصرية ، لم يكن الا خطرا وهميا فى ذلك الوقت ، ولو فرضنا أنه كان خطرا حقيقيا لكان فى الامكان تفاديه والبعد عنه اذا غير الأميرال موقف سفنه تغييرا طفيفا " .

وفى الساعة السابعة من صباح يوم ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ أمر القائد المغوار الأميرال " سيمور " بضرب الاسكندرية ، وأرسلت السفينة " الكسندرا " أول قذيفة

الى حصن الاسبتالية ثم تبعتها بقية البوارج والسفن . ولكن الطوابى المصرية لم تجاوب الضرب الا بعد الطلقة العاشرة ، والبعض الآخر بدأ بعد الطلقة الخامسة عشرة .

معركة غير متكافئة

ثم بدأت المعركة ولم تكن بشهادة كل من كتب عنها معركة متكافئة . فقد كانت مدافع الأسطول البريطانى أحدث وأقوى وأمتن ، وكانت قذائفها أشد فتكا وأبعد مرمى ، أما قلاع الاسكندرية فلم تكن فى حالة طيبة . وكانت كلها من عهد طابية فايتباى قلاعا مكشوفة ، أى أن الجنود كانوا يطلقون قذائفهم فى العراء . لاتحميهم حوائط أو أسوار .

ورغم هذا فقد قاومت هذه الحصون فى أول الأمر مقاومة عنيفة لم يكن أحد يتوقعها ، مما اضطر البوارج الانجليزية الى تغيير خطتها . فألقت مراسيها على بعد محدد ، وأخذت تلقى قذائفها من هذا البعد . واستطاعت أن تحدد أهدافها بعد أن كانت تتحرك أثناء الضرب ، وبذلك استطاعت فى منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر أن تسكت حصون رأس التين ، والفنار ، والاسبتالية . بعد مقاومة باسلة وصفها القومندان " جودريتش " بقوله :

" ان جنود المدفعية المصرية جاوبوا نيران الأسطول الانجليزى الجهنمية مجاوبة مدهشة غير متوقعة ألبتة ، وأظهروا بسالة عجيبة رغم التفاوت الجسيم بينهم وبين الانجليز من ناحيتى عدد المدافع وعيارها " .

واتجهت بوارج الأسطول بعد ذلك الى حصن الأطة وصوبت خمس مدرعات كبيرة مدافعها نحو هذا الحصن .

وكان القائد المصرى لهذا الحصن مثالا نادرا للبطولة . فقد لبث الى جانب العلم يدير المعركة فى العراء بشجاعة عجيبة الى أن أصابته قذيفة أطارته أشلاء متناثرة فى الفضاء ، ومن المؤسف حقا أن اسم هذا البطل ضاع مع معالم المعركة . فلم يستطع مؤرخو الاحتلال — على كثرتهم — العثور عليه ، وليتنا فى المستقبل نوفق لمعرفته لنعمل على تخليد ذكراه .

شاهد القائد الانجليزى " وولتر جودسول Walter Goodsall " قومندان الباخرة " Chiltern " احدى سفن شركة التلغراف الشرقية Eastern Telegraph مقاومة هذا الحصن ودفاع قائده ، وأعجب بهما ، قال :

" لقد عجبت من هذه البطوله التى لا يمكننى أن أدرك حقيقتها ، تلك البطولة التى كان يتحلى بها الجنود الذين يطلقون مدافع حصن الأطة ، كما أعجبت كل الاعجاب بموقف قائد هذا الحصن قرب سارية علمه وهو قائم وحده والمنظار فى يده يراقب الآثار التى تركتها القذائف فى الحصن .

لقد كان هذا القائد فى الحقيقة رجلا شجاعا لا يعبأ بعدد المقذوفات التى كانت تنهمر على حصنه . . . ثم أخذت البارجة " انفلكسيبل " تصوب مدافعها الضخمة نحو هذا الحصن الى أن دكت أسسه ودمرته تدميرا ، وفى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر صوبت قنبلة الى مستودع البارود بالحصن وأصابته فانفجر ، ولا بد أن كثيرا من الجنود قد قتلوا ، فان عددا كبيرا منهم طار فى الفضاء ، وكذلك الضابط الباسل الذى كان واقفا كالأسد فى عرينه طار فى الهواء هو وسارية علمه " .

وبعد تحطيم هذا الحصن اتجهت البوارج الانجليزية الى بقية الحصون الأخرى ، وقاومت الحصون جميعا مقاومة عنيفة لا تقل بطولة عن مقاومة حصن الأطة ، وأثبت الضباط والجنود المصريون من المهارة فى القتال ما أثار اعجاب الانجليز أنفسهم ، كان الماجور " تلك Tullock " أحد رجال المخابرات على ظهر السفينة انفسيبل أثناء ضربها لحصن المكس ، وقد قال فى ص ٢٧ من كتابه *" Recollections of Forty Years Service "* :

" لقد كان مما يثير عجبى حقيقة أن أرى هؤلاء الجنود — رغم عنف الضرب — واقفين فى أماكنهم حريصين على ملازمة مدافعهم . وكنت أرى فى أكثر من مرة قذيفة من قذائفنا تدخل فى احدى

كوات مدافعهم ، وكنت أقول لنفسى : هذا المدفع قد انتهى وأصبح فى حيز العدم ، ولكننى كنت أعود فأقول : كلا ثم كلا ، لأن هذا المدفع بالذات كان لا يلبث أن يعود لاطلاق قذائفه فى الوقت المناسب ، وقد أتت قذائف أحد المدافع المصابة مرة بسرعة فائقة جدا حتى أننى لم أتمالك نفسى ، ووثبت الى حافة السفينة ، ورفعت يدى صائحا : لقد أجدت العمل أيها الجندى المصرى " .

أما الأميرال " سيمور " نفسه فقد قال فى ختام تقريره عن المعركة :

" ولقد قاتل المصريون قتال الأبطال بأقدام ثابتة ، وكانوا يجاوبون النيران الشديدة التى تصبها على حصونهم مدافعنا الضخمة الى أن قتل عدد كبير منهم " .

ولقد شهد المعركة المسيو " جون نينيه " عميد الجالية السويسرية فى مصر سنة ١٨٨٢ووصفها فى كتابه " عرابى باشا " ، قال :

" يجب أن نعترف بأن هذه مجزرة همجية لا ضرورة لها ، ولم يكن لها أى مسوغ ، وليس الباعث عليها سوى الشهوة الوحشية المتعطشة الى القتل وسفك الدماء ، ولقد كان بودى أن أسائل أولئك الضباط الذين كانوا يباشرون الضرب ويقذفون قنابل الترالبوزات ، هل يستطيعون حينما يعودون الى بلادهم ويجلسون حول موائد الشاى فى بيوتهم أن يتحدثوا الى ذويهم عن آثار الفتك والتدمير التى خلفتها تلك المجازر البشرية ؟ انى أشك فى ذلك ، فليت شعرى أى اهانة لحقت الأمة البريطانية حتى تثأر لنفسها بهذه الفظائع . . ! ! ؟ "

ويستطرد مسيو نينيه فيصف بطولة المصريين فى دفاعهم فيقول :

" ومع ذلك فما كان أبدع هذا المنظر ، منظر الرماة المصريين الذين كانوا قائمين على مدافعهم وهى مكشوفة فى العراء وكأنما هم فى استعراض حربى لا يرهبون الموت الذى يكتنفهم ، اذ لم يكن لهم

دروع وافية ولا متاريس ، وكانت معظم الحصون بلا ساتر ومع ذلك فهؤلاء الشجعان من أبناء النيل كنا نلمحهم وسط الدخان الكثيف كأنهم الأبطال الذين سقطوا فى حومة الوغى ثم بعثوا ليكافحوا العدو من جديد ويستهدفوا لنيران مدافعه ، وكان الأئمة يزورون الحصون ويشجعون المقاومة ، وقام الجميع بواجبهم من جند ورجال ونساء وصغار وكبار ، ولم يكن ثمة أوسمة ولا مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم ، بل ان عاطفة الوطنية والثورة على الفظائع التى استهدفوا لها كانت تستثير الحماسة فى صدورهم ، وهم هم أولئك الشجعان المجهولون الذين لم يفكر أحد فى آلامهم " .

وفى منتصف الساعة السادسة مساء عجزت حصون الاسكندرية عن الاستمرار فى المقاومة فسكتت ، وأعطى الأميرال "سيمور" أوامره بالكف عن الضرب .

تخريب الاسكندرية

ولم يصب التخريب الحصون والقلاع وحدها ، بل أصاب معظم أحياء المدينة ، فأصبحت بعد المعركة مجموعة من الخرائب المهدمة ، وكم كان "سيمور" نبيلا حين أبدى فى تقريره أسفه لما أصاب المدينة ، قال :

" وأرانى متأسفا لاضطرارى أن أخبركم أن مدينة الاسكندرية أصيبت بأضرار بالغة من الحريق والنهب " .

ومن الذى سبب الحريق ؟؟

انها قذائف الأسطول .

ومن الذى سبب النهب !!

انه الاحتلال البريطانى وجنوده .

ان الأميرال لم يقف بوحده ويقصر الضرب على القلاع والحصون ، بل لقد وجه قذائف الاسطول الى كل ناحية من أنحاء المدينة ، فحرقت البيوت وقتل الأهلين الآمنين . وصف هذا الاعتداء البعيد عن الانسانية المسيو "بيبه" فى كتابه سالف الذكر ، قال :

" وأقفلت الدكاكين والنوافذ والأبواب والبيوت فى المدينة كلها . وخيل الى أننى فى بلدة قضى عليها بالخراب النهائى . وكانت قنابل الأسطول الضخمة تنهال على المدينة وتحرق أحياءها فى كل جهة . وتدور فوق رؤوسنا وهى تدوى دويها المفزع ، فكانت تدمر المنازل فى ناحية وتشعل النيران فى ناحية أخرى ، وترسل الموت فى كل مكان . وقد مرت فوق رأسى خمس قذائف من " رسائل الانسانية الفرنسية " على حد تعبير أحد الضباط ، على سطح المنزل الذى كنت أقيم فيه تجاه حمامات (كارتونى) بالقرب من محطة الرمل ، فأصابت احداها مدرسة فدمرتها ، وأصابت ثلاث أخرى بعض المنازل من قصور الأغنياء بالقرب من شارع باب شرقى فخربتها ، والخامسة قتلت أحد عشر شخصا وجوادين بأول شارع محرم بك ، ولم يكن لهذه القذائف القاتلة التى أصابت قلب المدينة ما يقابلها من جانب المصريين . فان عرابى قد ارتأى منعا للدمار أن لا تشترك قلعتا كوم الناضورة وكوم الدكة فى الضرب لوجودها وسط المدينة ... الخ " .

ولم ينفرد الضباط والجنود المصريون ببطولة الدفاع فى هذا اليوم وانما شاركهم فى هذه البطولة أهالى الاسكندرية ، ولأهالى الاسكندرية فى تاريخ الوطنية المصرية صفحات مجد مشرفات ، فقد تطوع السكندريون وقدموا ما استطاعوا من معونة وخدمات للجند المحاربين ، شهد بهذا الشيخ محمد عبده حين قال :

" فكان الرجال والنساء تحت مطر الـكلل ونيران المدافع ينقلون الذخائر ويقدمونها الى بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها . وكانوا يلعنون بلعن الأميرال " سيمور " ومن أرسله " .

وأكد هذا عرابى فقال فى مذكراته :

"وفى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر الحربية واعطائهم الماء وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم الى المستشفيات" .

وقال محمود باشا فهمى فى كتاب البحر الزاخر :

"ورأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الأهالى بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابى باب العرب ، وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية ، من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات ، هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم ، والبعض من الأهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول" .

هذا ما كان يعمله الأهلون والصبية والنساء ، فماذا فعل توفيق وأين كان ؟

لقد كان توفيق يقيم أثناء الضرب فى سراى مصطفى باشا بالرمل ، ويقيم معه بعض الأجانب وبعض الأمراء ونفر من الخائنين من أمثال سلطان باشا ، فلما انتهى الضرب أرسل الى "سيمور" يستأذنه فى الانتقال الى سراى رأس التين فسمح له ، ومنذ تلك اللحظة انضم توفيق الى الانجليز انضماما سافرا .

ولن أطيل فى ذكر تفاصيل الحوادث التالية ، فقد قاوم العرابيون فى البحيرة ثم فى الشرقية ، ولكن النتيجة الحتمية كانت معروفة منذ وطئت أقدام الانجليز أرض الاسكندرية .

بدأ الاحتلال الانجليزى اذن فى اليوم الحادى عشر من شهر يوليه سنة ١٨٨٢ ، وأعلن الانجليز ، منذ اللحظة الأولى ، أنهم لن يبقوا فى مصر طويلا ، وأنهم انما جاءوا ليتصفوا الخديو ويحمونه من الثائرين ، وأنهم بعد قليل سيرحلون ، وتكررت تصريحاتهم ووعودهم فى هذا المعنى ، ولكن المصريين لم يخدعوا بهذه الفرية أو بهذه الوعود ، ولم يعترفوا بهذا الاحتلال لحظة واحدة ، بل ركزوا جهودهم لمقاومة البريطانيين والعمل على طردهم .

ولقد حاكم الانجليز عرابى وصحبه ونفوهم خارج مصر ، وسرحوا الجيش ليقلموا أظفار البلد ، وتعاون الحكام والاقطاعيون مع المحتلين على اسكات كل صوت ، واضعاف كل قوة ، واذلال كل عزيز .

جهاد طويل فى سبيل الحرية

ولكن هل يستكين هذا الشعب الأبى لهذا الظلم وهذا المستعمر الغاصب ؟ كلا ، فالشعب المصرى كما عرفناه دائماً شعب دافق الحيوية ، موفور الوطنية ، قد يحنى الرأس أمام العاصفة ، ولكنه لا يستكين ولا يلين . فلم تلبث الدعوة الوطنية أن انبثقت بعد سنوات قليلة ، وعلى لسان شاب يافع صغير السن ، أعزل من كل سلاح مادى ، ولكنه كان يناضل بروحه وقلبه ولسانه وقلمه ؛ هذا هو الزعيم الوطنى الكبير مصطفى كامل ، كان منذ أيام دراسته يرى ويتألم ، ويفكر ويعمل ويكتب ؛ لقد أنشأ وهو بعد تلميذ مجلة " المدرسة " وجعل شعارها : " حبك مدرستك ، حبك أهلك ووطنك " ، وكم كانت له من مواقف وهو فى عهد التلمذة للدفاع عن الحق ورفع الظلم .

ثم حملته روحه القوية الى فرنسا ليتم تعليمه بها ، وحصل هناك فى سنة على ما لم يحصله غيره فى سنوات ، واتصل بالصحف والكتاب ، وبدأ يكتب فى الدفاع عن حق مصر وحريتها واستقلالها ، ويهاجم المحتلين الانجليز ، وظل حياته كلها مجاهدا يتنقل بين مصر وبلدان أوربا خطيبا وكاتبا ، منددا بأعمال المحتلين ومناديا بالجلاء ، وبحق مصر فى الاستقلال ، ينشىء الصحف باللغة العربية وباللغتين الانجليزية والفرنسية ، ويدبج المقالات ، ويعقد الاجتماعات ، ويثير الشعور ، ويبعث النفوس ، يهدف بهذا كله الى اعادة الروح الى هذا الشعب المجيد .

وكانت ضربته القوية هى التى وجهها الى انجلترا بعد حادثة دنشواى البربرية فألب الدول جميعا على انجلترا الى ان اضطرت اضطرارا ألى سحب عميدها الخطير صاحب الـكلمة الأولى فى مصر وفتذاك وهو " لورد كرومر " .

وقبيل وفاته أسس الحزب الوطنى ، وألقى خطبة الوداع ، وكل كلمة فيها آية من آيات الوطنية .

وتولى زعامة الحركة بعده بطل الفداء والتضحية محمد فريد ، فسار على نهج الزعيم الأول ، وضحى فى سبيل الحركة بكل ما يملك من مال ، بل بصحته وحياته ، فمات فى أوربا عليلا غريبا عن الوطن الذى يحبه ويتفانى فى خدمته .

وكانت ثورة سنة ١٩١٩ الثمرة الحقيقية لحركة مصطفى كامل ، وأذفنا فى خلالها المستعمرين ألوان العذاب والمقاومة ، وحمل لواء النضال سعد زغلول ، وقاد المصريين خطوات فى طريق الحرية الى أن انحرفت انجلترا بمصر عن الطريق القويم ودخلت بها فى متاهة المفاوضات ، الى أن كانت معاهدة ١٩٣٦ التى سميت يوما من الأيام بمعاهدة الشرف والاستقلال .

ثم تطورت الأحوال من سيء الى أسوأ حتى ران اليأس على نفوس الكثيرين ، وحسب بعض الغافلين أن لا أمل فى يقظة أو اصلاح ، ولـكن الحيوية الدافقة والوطنية المستكنة فى هذا الشعب الخالد لم تلبث أن انفجرت فى يوليه سنة ١٩٥٢ فى شكل ثورة تعود بالوطنية المصرية الى أصولها الحقيقية .

ثورة سنة ١٩٥٢

وقد فهمت ثورة ١٩٥٢ التاريخ المصرى الحديث فهما صحيحا ، فقدرت أن المحتل لابد له من عمد يرتكز اليها لترسخ فى البلاد أقدامه ، هذه العمد تتمثل فى الجالس على العرش يضحى بكل شيء فى سبيل متعته وفى سبيل الابقاء على هذا

العرش وسلطانه ، وتتمثل فى جماعة من نهازى الفرص لا هم لهم الا الغنى والاستزادة من الثروة بأى سبيل ، حتى ولو تعارض هذا السبيل مع مصلحة الشعب والبلد ، بل ولو تعارض هذا السبيل مع المبادىء والمثل والشرف .

فكانت خطة الثورة خطة حكيمة تتلخص فى التخلص من هذا الجالس على العرش ، العابث بشرف الوطن ، والتخلص من هؤلاء الاقطاعيين النهازين ، ليعود للشعب انسانيته ، وللوطن كرامته .

أما الهدف الثانى للثورة فهو وضع سياسة انتاجية اصلاحية عامة تعمل لرفع مستوى الشعب اقتصاديا وثقافيا وصحيا .

وأما الهدف الأخير ، هدفنا جميعا ، وأمنية الأجيال المتتابعة فهو اخراج المحتل من أرض القنال لنطهر أرض الوادى جميعا من هذا الدنس الذى ظل عالقا بها هذه السنوات الطوال . وقد كانت الاسكندرية أول مدينة احتلها جنود العدو ، وشاء القدر العادل أن تكون أول مدينة تجلو عنها جنود العدو ، ففى فبراير ١٩٤٧ جلا الانجليز عن ثكنات مصطفى باشا وعن قلعة كوم الدكة ، وفى مارس من نفس السنة جلوا عن ثكناتهم بالقاهرة . وها نحن أولاء نحتفل بتحقيق الهدف الأكبر وهو جلاء العدو عن آخر معقل له فى أرض القنال .

أيها المصريون الأمجاد

لقد كانت هذه أمنية أجدادكم وآباؤكم الذى ظلوا يجاهدون فى سبيل تحقيقها السنين الطوال ، والتى بذلوا فى سبيلها الأرواح ، وعلى الطريق المؤدى اليها كم من دموع سكبت ، وكم من دماء أريقت ، وكنتم أنتم السعداء أن قدر لكم أن تحيوا فى عصر هذه الثورة الطاهرة الموفقة ، وأن تشاركوا فى حصاد أمجادها ، وخير أمجادها استعادة الحرية المسلوبة .

العيد الأكبر

عيد الأعياد ، عيد الحرية والجلاء

فاليوم عيدنا الأكبر .

اليوم عيد الأعياد .

اليوم العيد الحقيقى نحس له فى نفوسنا فرحة ليس كمثلها فرحة .

وكم مرت بنا فى الماضى أعياد كانت هى والمآتم سواء ، فلم يكن يحس بها انسان أو يفرح لمقدمها انسان ، فبعضها كان عيدا للجالس على عرشه وبعضها كان عيدا لاستقلال مزعوم .

أما اليوم ، ١٨ يونيه سنة ١٩٥٦ ، فهو عيد الحرية الحقيقى ، تجب له قلوبنا ، وتهتز لمقدمه أرواحنا ، وتستبشر بحلوله وجوهنا .

فافرحوا أيها المصريون كما لم تفرحوا من قبل ، واعلنوا عن فرحتكم الكبرى ، وغنوا أغانى الحرية ، ورددوا أهازيج الاستقلال ، وانشدوا أناشيد العزة والكرامة .

ثم

ثم لا تنسوا وأنتم فى غمرة فرحتكم الكبرى أن تذكروا الشهداء من جنودكم وأبطالكم وزعمائكم الذين رووا هذا الغرس الذى تجنون ثماره ، بدموعهم وعرقهم ودمائهم .

أسكتوا أغانيكم اليوم لحظة .

وأوقفوا أفراحكم اليوم هنيهة .

واذكروا هؤلاء الأبطال الأمجاد الذين سبقوكم بالايمان والكفاح والتضحية والفداء .

ففى هذه الذكرى بعض الوفاء لمن يجب لهم الوفاء .

ثم

ثم لا تنسوا وأنتم فى غمرة فرحتكم الكبرى أن تشكروا .

أن تشكروا رجال الثورة وفى مقدمتهم صانع الثورة وبطل الجلاء جمال عبد الناصر .

انهم فتية آمنوا بربهم وبوطنهم فى وقت اشتد فيه الظلم وساد فيه الظلام ، فوضعوا رؤوسهم على أكفهم ، وتقدموا لمحاربة قوى الشر جميعا ، فأعزهم الله ونصرهم ، وأعز مصر كلها ونصرها بنصرهم .

انه واجب الشكر لمن يستحقه .

وانه واجب العرفان بالجميل .

وأنتم أيها المصريون من أعرف شعوب الأرض بالجميل .

فأسكتوا أفراحكم اليوم لحظة ، وأوقفوا أغانيكم اليوم هنيهة ، لتحيوا جمالا ، لتحيوا البطولة والمثل العليا ، لتحيوا الأمل المشرق والمستقبل الباسم .

ثم

ثم لا تنسوا ، وأنتم فى غمرة فرحتكم الكبرى ، أن تذكروا فضل الله عليكم

فأسكتوا أفراحكم اليوم لحظات .

وأوقفوا أغانيكم هنيهات .

لتناجوا الله سبحانه مناجاة العبد الشاكر لأنعمه .

واسعدلوا له ركعات ، تذكرون فيها فضله ، وتشكرون فيها توفيقه ، وتبتهلون اليه ، سبحانه وتعالى ، أن يتم عليكم نعمه ، وأن يكتب لمصرنا العزيزة المجد والسؤدد .

الله أكبر .

الله أكبر كبيرا .

والحمد لله كثيراً .

الحمد لله أن نصر عبده

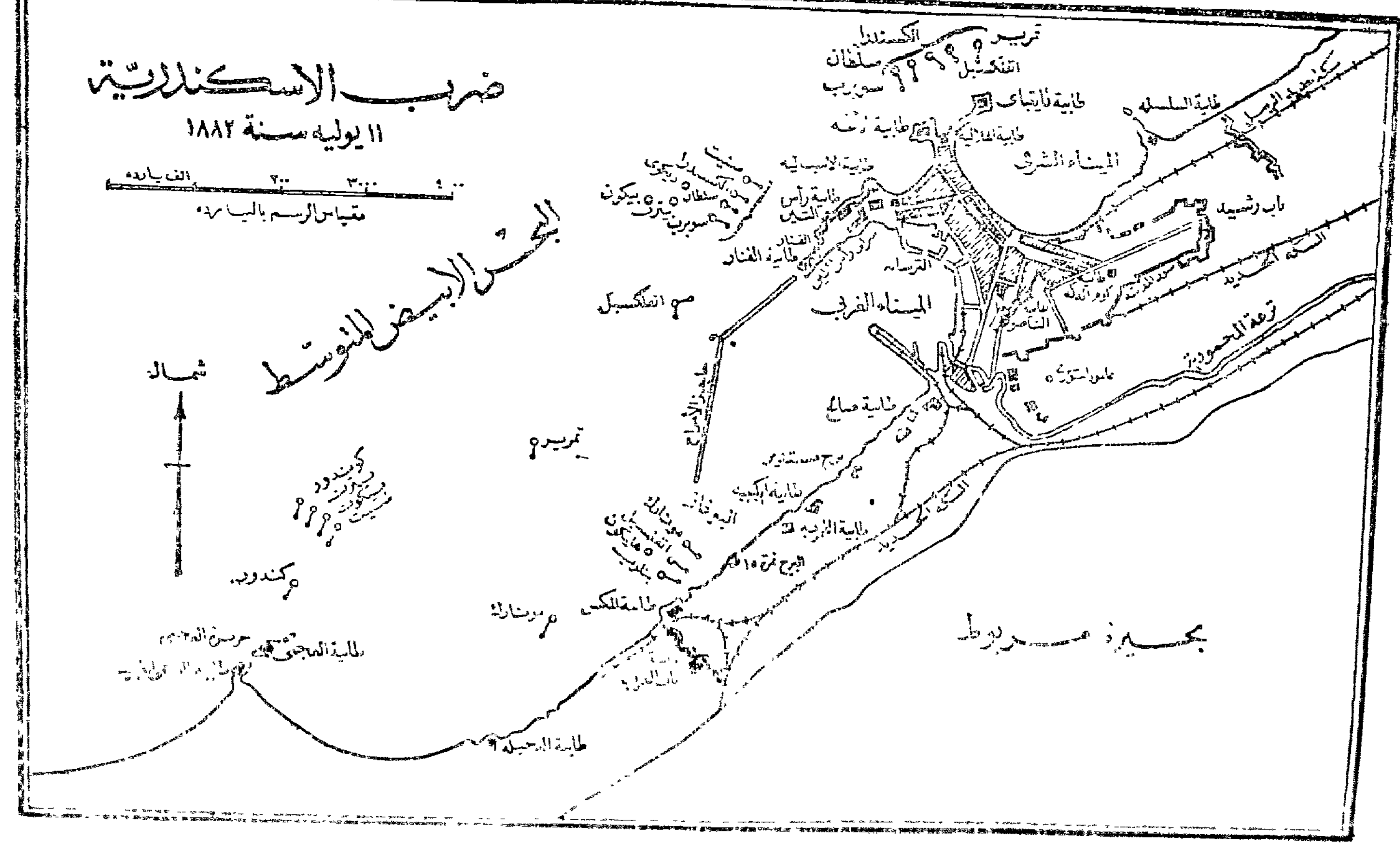
وأعز جنده .

وهزم الأعداء والأحزاب وحده

الله أكبر ، والعزة والسؤدد لمصر

٩ من ذي القعدة سنة ١٣٧٥
١٨ من يونيه سنة ١٩٥٦

جمال الدين الشيال
أستاذ التاريخ بجامعة الاسكندرية


ضرب الإسكندرية
١١ يوليه سنة ١٨٨٢
مقياس الرسم بالياردة
البحر الأبيض المتوسط
شمال
بحيرة مريوط
الميناء الشرقي
الميناء الغربي
ترعة المحمودية
باب رشيد
السكة الحديد
طابية صالح
طابية المكس
طابية العجمي
طابية السلسلة
طابية قايتباي
طابية الفنار
تمرير
انفلكسيبل
سلطان
سوبرب
الكسندرا
تمريير
كندور

تم ، بعون الله ، طبع هذه السنة ،
بمطبعة جامعة الاسكندرية ، فى يوم الاثنين
٩ من ذى القعدة سنة ١٣٧٥ هجرية ، الموافق
١٨ من يونيه سنة ١٩٥٦ ميلادية .

مدير المطبعة

علی محمد الهواری